

قطاع الثقافة

قضايا حائرة .. وحيرة

حسن دوح

من هو الإنسان؟

وهل هو حر أم عبد ؟

وما مصير الإنسان

.. وما البعث وما الحساب؟

مطبوعات

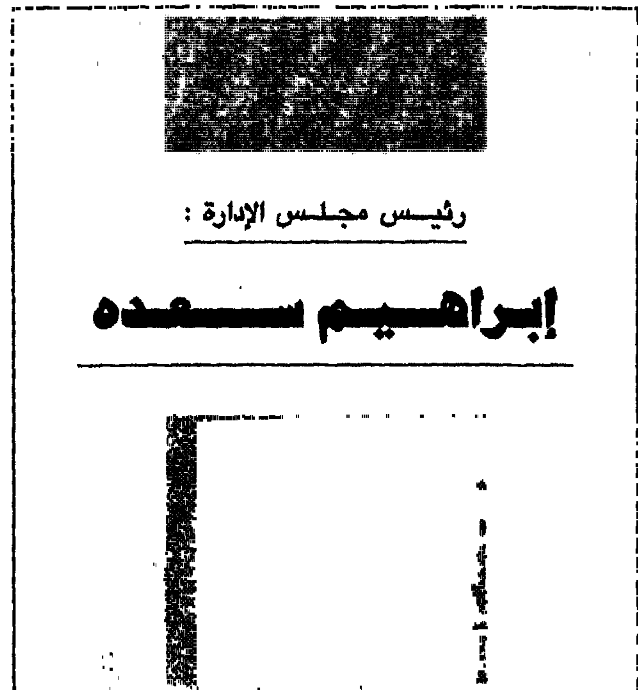
أخبار اليوم

قطاع الثقافة



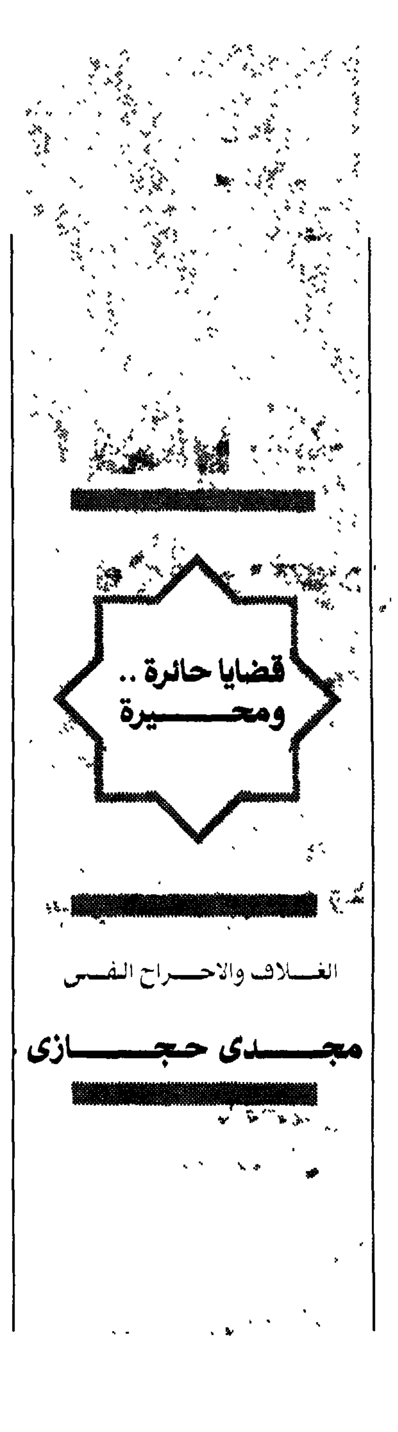
رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعده





دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ ش الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠


قضايا حائرة ..
ومحـــيرة
الغـــلاف والاخـــراج الفـــنى
مجـــدى حجـــازى



مقدمة

هذا الكتاب ينسب الفضل فيه لأخبار اليوم ، لأنها فتحت صدرها لى ، فأقبلت عليها بكل الحب ، وأودعت ما رزقنى الله من القليل من العلم بين يديها ، فجملته وزينة ويسرته لجماهير قرائها ، ثم مضت بى السنون تعصف بذاكرتى ، فأنستنى ما سبق أن كتبته فى صحيفتى المحببة ، فلما هيأ لى أخى وزميلى الأستاذ نبيل أباظة فرصة الكتابة من قبل فى « كتاب اليوم » ونشر لى كتيب « الاستغاثة » أطمعنى هذا التشجيع أن أبحث عن موضوع جديد ، وغير تقليدى ، وفجأة وجدتنى أرجع بذاكرتى إلى أكثر من خمسة عشر سنة ، فهرعت إلى « أرشيفى الخاص » حيث كانت ترقد أخبار اليوم فى سكون ، وهى تطوى بين جنباتها سلسلة من المقالات التى سجلتها فى أشهر رمضان ، فوجدت فيها ضالتى ،

ووجـــدت أن من واجبـى أن أتقـــدم بها من جـــديـــد إلى نفسى الصحيفة ، ولكن من خلال كتبهـا التى انتشرت على نطاق واسع فى الأرض ، ووجدت الاستجابة من القـائمين على أمر الكتاب : الأستاذ إبراهيم سعدة رئيس مجلس الإدارة ، ورئيس تحريـر أخبار اليوم ، والأستاذ نبيل أباظة .. فهذه بضاعتهم ردت إليهم وإلى أخبار اليوم .. وهذا الكتــاب إن يكن فيــه من جديـد ، فإنه تنــاول موضــوعات تشغل بال العامة والخاصة .. وأحسب أن كل مـوضوع تناوله هذا الكتــاب يفتقـر إلى العشرات من الكتــب ، والعشرات بل والمئـات من الكتاب .. ويكفى أن نذكر بعض عنــاوين الموضوعات المثيرة لتأكيد وجهة نظرنا..

● من هو الانسان
● وما ماضيه وما حاضره وما مستقبله ؟؟
● وهل هو حرام أم عبد !!
● الله والانسان !!
● الانسان بين الرحمة والعذاب
● من خلق الانسان !!
● ومن بعث الأنبياء .. وكيف نثبت نبوة محمد
● وكيف تم اللقاء بين محمد والمسيح فى يوم واحد !!
● وأخيراً تعــالـــوا لنسعى إلى محمـــد ونتلقى عنـــه الحكمـــة ، والاجابة عن كل تساؤلاتنا

هذه الموضــوعات اخترت لها عنــواناً ، ووضـعتــه على هامــة هذا الكتــاب :

« قضـايا حائرة ومحيرة » تبحث عن إجابات شافية

حسن دوح



١

شخصية الإنسان شخصية محيرة للإنسان نفسه ، وقد خضعت هذه الشخصية لدراسات نفسية هائلة ، كما خضعت لدراسات طبيعية وكيميائية ، ومع هذا لم يتوصل الإنسان لمعرفة هذه الشخصية . وكان من نتيجة هذا العجز في تفسير شخصية الإنسان ، ظهور مذاهب وأفكار طعنت الإنسان في الصميم وأهدرت كرامته الإنسانية .. منها أنه نسب للقردة . وكان من نتيجة هذا الشطط في التفكير ، انهيار القيم والمثل الإنسانية ، والاستسلام للبهيمية . وفي هذه الدراسة نحاول أن نستعرض الأفكار المتعارضة التي حاولت الكشف عن حقيقة الإنسان .. كما سنحاول طرح شخصية الإنسان على بساط الدين ليعرفنا بما غمض من شخص الإنسان .



١

من هو الإنسان ؟

محاولة معرفة الإنسان عن طريق المعامل..

كرس .. العالم الفرنسى « أليكس كاريل » حياته لدراسة الإنسان ، درس فى المعمل ودرس فى الكتب وعاش معه فى دروب الحياة ، ثم أمسك قلمه ليسجل كتابا اختار له العنوان « الإنسان ذلك المجهول » ووصده بمقدمة صادقة ، قال فيها عن نفسه « لست يلسوفا ، ولكنى رجل علم فقط ، قضيت الشطر الأكبر من حياتى المعمل ، أدرس الكائنات الحية ، والشطر الآخر فى العالم الفسيح اقب بنى الإنسان وأحاول أن أفهمهم ..»

ثم سجل نتائج دراسته والآخرين قائلاً : «إننا لا نفهم انسان ككل .. إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة ، وحتى ذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا ، فكل واحد منا مكون من موكب من

الأشباح تسير فى وسطها حقيقة مجهولة ، وواقع الأمر أن جهلنا مطبق فأغلب الأسئلة التى يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محدودة فى دنيانا الباطنية مازالت غير معروفة ..

بهذه الصراحة بدأ كاريل كتابه ، وبنفس الصراحة انتهى إلى أنه — وهو الحاصل على جائزة نوبل — عاجز عن معرفة حقيقة الإنسان ..

ثم رفع الرجل يداه مسلما بأن العقل عاجز عن فهم حقيقة الحياة .

لقد كنت أتمنى أن يرشدنا هذا العالم الفذ إلى وسيلة أخرى لفهم هذا اللغز الذى حيره .. وعجز عن معرفته .. ولكنه لم يفعل ، ومما لاشك فيه أن هذا العالم معذور فى موقفه ، لأنه وبعد دراسات مضنية عجز عن الوصول إلى الحقيقة ، فواجه بها نفسه ثم واجه بها الناس ..

ولم يفعل ما فعله غيره من السفسطائيين الذين أضلوا البشرية ضلالا بعيدا ، وأوقعوها فى حرج ، وكبدوها متاعب كثيرة .. إنه لم يدع ما ادعاه « داروين » الذى تصدى لأخطر قضية وهى قضية خلق الإنسان ، وادعى أنه توصل إليها فارتكب حماقة فى حق نفسه الإنسانية كلها ، ولنستمع لخرافته الكبرى عن منشأ الإنسان : « كانت النشأة الأولى من الأحياء المائية، ومن هذه الأحياء المائية نشأت الأحياء البرمائية ، ومنها نشأت الأحياء البرية، ومن الحيوانات البرية نشأ الإنسان الذى لا يفصله عن القرد سوى حلقة واحدة ..

ويتركنا داروين ندور فى هذه الحلقة ، ونتخبط بداخلها ، ونفتش عن آثار الجسد الكبيرة فى أجسادنا وفى أنفسنا وفى

أرواحنا.. ويجد « داروين » من أمثاله من يعزف على قيثارته ، ويرقص رقص القرود ، ويستسلم لحيوانيته ، فينغمس فى شهوات نفسه ، ويستسلم لغرائزه .. لأنه ابن لقرد ، والقرد حيوان .. وبالتالى فإنه حيوان مثله .

وعلى طريق داروين مضى البعض ليقولوا، انه مادام القرد قد ارتقى إلى مرتبة الانسانية، فإنه سيظهر إنسان « سوبرمان » أرقى درجة من انسان اليوم. ومضت الخرافات إلى أن قالوا والعياذ بالله أن الله سيخرج من هذا الإنسان السوبر مان وسقط داروين وخرافاته.

هذا التخريف رفضه العلم، لأنه جار على الإنسان ونال منه، ومن تاريخه ومن مستقبله كذلك.. فمثلا.. قام أحد العلماء بأبحاث عن عقل الإنسان وعقل القرد، واختار أذكى القرود هى الغوريلا ، واختار إنسانا عاديا فى نصف وزن الغوريلا ، وعمل موازنة بين عقل القرد الكبير .. فوجد أن وزن مخ الغوريلا لا يزيد على ٣٦٠ جراما بينما يصل وزن مخ الإنسان العادى إلى ١٣٦٠ جراما .. فأى علاقة بين هذا الحيوان وبين الإنسان ؟

وقام عالم الطبيعة «شرنجتون» بدراسة تفصيلية على الإنسان خرج منها بحقيقة وهى أن الإنسان «طاقة وعقل» .. قال ؟ حيثيات حكمه «لقد أصبح بقدرة العلم الطبيعى أن يفسر الحي باعتبارها تنفسا وحركة ، ونموا وتوالدا ، وتحليلا للأغذية الأنسجة .. الخ ، ذلك لأنه لا يوجد شىء من هذه الظواهر لا يقع تحت طائلة العلم ، إنها كيميائية وطبيعية ، ولكن هذا الشىء الآخر المصاحب للحياة وهو الفكر ، فإنه يهرب من دائرة العلم الطبيعى ، ويظل بعيدا عنه ، حتى لقد بدأ العلم الطبيعى يتجاهله باعتباره شيئا يخرج عن دائرة بصره ، وبهذا نشأ فارق أساسى بين الحياة والعقل ، فالحياة موضوع للكيمياء والطبيعة ، أما العقل فيهرب

منها ، بحيث يمكن تلخيص الإنسان فى أنه يتألف من «طاقة وعقل».

ومع هذا التصدى للدفاع عن الإنسان فى مواجهة النزعة الحيوانية التى يريدون فرضها عليه .. فإنهم عجزوا عن وضع تعريف أمين له.

وكشف السر الغامض :

لقد كشف هذا السر الغامض عن طريق خالق الإنسان ، فهو الذى عرف الإنسان بنفسه ، وكشف عن أسراره ، حدد مكانته من المخلوقات الأخرى ، كما بين له الطريق الذى سيسلكه فى حياته.. وعرفه بنهايته ثم ببعثه من جديد ، ثم بحياته اللانهائية .. ومع هذا فإنه حبس عنه الكثير من الحقائق العامة وحقائق نفسه ، وخبايا مستقبله .. وطلب منه أن يسلم بما خفى عنه .. بل جعله شرطا لإيمانه .

لقد استأثر الله بعلم الغيب وحرم الإنسان منه .. «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين».

ثم إنه أمر رسله بتبليغ الناس بأن الله وحده هو الذى يعلم الغيب «قل لا يعلم الغيب إلا الله».. كما أخفى نفسه عن نظرنا المجرد «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار» .

وطلب من الناس أن يؤمنوا بالغيبيات التى استأثر بعلمها «الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون».

وطلب من رسوله أن يبلغ الناس أنه هو نفسه لا يعلم الغيب «قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء» .. وقال فى موضع آخر «ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم».

وأرسى القاعدة الكبيرة وهى أن العلم كله بيد الله «وسع ربى كل شىء علما».

وفى نفس الوقت سمح بقدر ضعيف من العلم لهذا الإنسان «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا».

هذا الحكم الصريح حدد قدرة الإنسان فى دائرة محدودة ، ومهما اجتهد ، ومهما فعل فإنه سيظل قاصرا عن ادراك معظم الحقائق .. «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون» .. فمثلا سيظل الإنسان جاهلا بأمور تمسه شخصيا ، كجهله بيوم ولادته، وجهله برزقه ، وبعمره ، وبنهايته ، وببعثه ، وبنشوره .. «وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت» .. «وسيظل كذلك جاهلا بروحه «قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» ..

فالله سيظل هو العالم الوحيد بكل أسرار الحياة وبالتالى بكل أسرار الناس .. «لا يعلم الغيب إلا الله»..

والله وحده الذى سيمنح الإنسان قدرا من أسراره ومن علمه لن يتجاوزه مهما كان عقله ومهما كانت شخصيته ، فقد قال لرسوله : «ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا».

فإذا أردنا أن نعرف حقيقة أنفسنا أن نسلم بأننا لن نبلغ غاية العلم بهذه الحقيقة .. وستكون قناعتنا بالقدر الذى سيمنحنا الله إياه هو سر سعادتنا .. وسر راحة بالنا .. ولا نعذب أنفسنا ولا نعذب البشرية معنا كما فعل داروين وأمثاله.

فماذا قال الله عنا ..

وكيف عرفنا بأنفسنا ..

لقـد عرفنـا الله بـالإنســان معرفـة تفصيليـة . عرفنـا بنشـأتـه وبأصله ، وبحياته ونهايته ، ثم ببعثه وبحياته الثانية.

لقد عرفنا بالجانب المادى فيه بقـوله : «ولقد خلقنا الإنسان من سلالـة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنـا النطفة علقـة، فخلقنا العلقـة مضـغة ، فخلقنـا المضغـة عظامـا ، فكسونـا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين».

هـذا الـوصف لخلق الإنســان يمثل الجانب الأول فيـه فى خلق الإنسان الأول ، الـذى خلق من طين .. ثم انتقل إلى المرحلة الثـانية وهو التناسل نتيجة الإزدواجية.

ومع هذا فإن الإنسان يـذكر دائما بطينيته ، وأنه سيعيش بهذه الطينية .. وأنه سينتهى إليها .. «منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى».

ويذكـر الرســول عليه الصـلاة والسـلام الإنســان بهذا النسب فيقول «كلكم لآدم وآدم من تراب».

ثم يـذكـره بأنـه ينتمى لأسرة آدم وليس لغيره «يـاأيها النـاس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحـدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء».

ثم يذكره بأن مشكلة قامت فى موطن الإنسان الأول ، قضـى الله فيها بطرد الإنسان الأول من الجنة ونزوله للأرض .

ثم يذكره بالنزاع الـذى نشأ بين الأخوين قابيل وهابيل ، والذى انتهى بمصرع احدهما.

ثم يشرح لـه قصص الـرسل والأنبياء ، ويطلب منـه اتبـاعهم ، ويشرح لـه قصـة الشيـاطين بـزعـامـة ابليس ويحذره منهم ومن اتباعهم.

هـذه الملحمـة التـاريخيـة التـى تنـاولت خلق الإنســان الأول ،

وتناولت مشوار الحياة تمثل جزءا رئيسيا فى معرفة شخصية الإنسان ، وتكشف له عن جوهره .

ومن هنا يبدأ تفكير الإنسان ..

— يبدأ من مسلمات ليس له فيها الخيرة .. لقد نشأ من طين.

— وتناسل من إنسان .

— وكان فى الجنة .

— ونزل إلى الأرض .

— هو مركب من عناصر مادية معينة.

— وأنه يستمتع بالروح وبالعقل من دون الكائنات.

— وأنه سيعيش فى الأرض وسيموت فيها وسيبعث منها .

— وأنه سيدخل جنة أو نارا .

بعد أن يسلم بهذه الحقائق له أن يبحث عن نفسه ، ويغوص فى أعماقها كيف يشاء .

«وفى أنفسكم أفلا تبصرون».

أوصاف الإنسان

ولقد وصف الله الإنسان ، وصفه ظاهرا وباطنا .. وكشف له عن هذه الأوصاف فى آيات كثيرة من القرآن .. وصف قوامه بقوله «لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم» . ووصف صورته «وصوركم فأحسن صوركم».

ووصف بعض أعضاء جسده «ألم نجعل له عينين ، ولسانا وشفتين ، وهديناه النجدين».

ثم وصفه أوصافا نفسية .. وأخرى خلقية .. «ولقد كرمنا بنى آدم».. «ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها».. «إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا » «خلق الإنسان من عجل».. «وخلق الإنسان ضعيفا»..

إن الإنسان خلق هلوعا، إذا مسه الشر جزوعا، وإذا مسه الخير منوعا».. «قتل الإنسان ما أكفره».. وكان الإنسان أكثر شيء جدلا».. «لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين».

هذه الصفات بعضها يرفع من قدر الإنسان وبعضها ينزل به إلى أسفل سافلين، وهى صفات تلحق العمل الصالح أو العمل الفاسد..

ومن خلال هذه الأوصاف يستطيع الإنسان أن يقول إننى قد عرفت القدر الذى أراده الله لى لأتعرف به إلى نفسى.. وبهذا القدر سأعمل فى الأرض مسترشدا بعلم الله ونوره..

وهناك قضية هامة لابد أن يعرف الإنسان بعض جوانبها حتى تستكمل صورته أمام نفسه.. فالإنسان ليس فردا قائما بذاته ولكنه يعيش فى كون يتألف من سماء تظله، وأرض تقله، وبحار وأنهار، ورطب ويابس، ورياح وعواصف، وأمم من أمثاله من الطير والحيوانات.. كل هذه الكائنات تؤثر فى الإنسان وتتأثر به.. ولقد أثر الإنسان على سائر هذه الكائنات، بل إنه سخرها له لتكون فى خدمته..

— «ولقد كرمنا بنى آدم فى البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا»..

— «ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السموات ومافى الأرض، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة..»

— «وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر، والنجوم مسخرات بأمره، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون».

— «وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون».

— «والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون».

وبعد أن عدد الكائنات المسخرة فى خدمة الإنسان، أعلمه بأنه لا يعرف منها إلا القدر اليسير وما خفى كان أعظم، «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله غفور رحيم»

ثم بين علاقته بعالم الملائكة ودنيا الشياطين..

فجعل الملائكة حراسا وحفظة عليه، ومسجلين لكل أعماله وتصرفاته. «وإن عليكم لحافظين، كراما كاتبين، يعلمون ما تفعلون».

وحذره من خطورة الشياطين، وكشف عن تآمرهم.. «إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا».

***

هذه هى دنيا الإنسان الخارجية، وهى دنيا تتأثر وتؤثر ف الإنسان، فمن أراد أن يتعرف إلى شخصية الإنسان فعليه أن يدرس نشأته وتاريخه، وخصائصه، وعقله ونفسه، ثم يدرس العالم المحيط به.

فهل يستطيع أحد أن يقوم بهذه الدراسة!!

الرد السريع لا..

فماذا يفعل الدارس..

يبدأ بالتسليم بعجزه عن الإحاطة بعلم الإنسان، تاركا الأمر لخالقه، ثم يعمل فكره بعد ذلك باذلا قصارى جهده للوصول إلى حقيقة نفسه، رافعا راية عالية تقول:

«وماأوتيتم من العلم إلا قليلا».



٢

سؤال يشغل بال الكثير من الناس.

هل إنسـان القرن العشرين مهيأ قلبيـا وذهنيا ليكون متدينا؟ ولـو أردنا أن نفصح أكثر. وبسطنا السـؤال بصـورة محددة وصريحة.. فهل إنسـان القـرن العشرين الـذى طـار فى السماء حتى ركب ظهـر القمر، وغاص فى أعماق البحار حتى أخـرج منهـا بترولا ملتهبـا.. وادعـى أنـه زرع أطفـالا فى الأنابيب، وأنطق التليفـزيون وركب عقـلا حديـديا للكمبيـوتـر.. فهل يسلم هـذا الإنسـان بـالـدين ويستسلم لله رب العـالمين، ويضع هـامتـه على الأرض ساجد لله شكرا؟!



٢

الإنسان بين حاضره وماضيه

هذا السؤال لن أستطيع الإجابة عليه إلا بالقرآن، وعلى لسان حامل القرآن.

قبل أن أجيب على هذا السؤال الكبير أود أن أتساءل: هل أصيبت العقيدة بالبلى لتقادم زمانها؟

الجواب نجده فى العقيدة نفسها، فالقرآن وهو يعرفنا بعقيدتنا، رجع بنا إلى خلقنا الأول، فمنح الأب الأول صفة النبوة، ثم قص علينا معظم قصص رواد هذه العقيدة من رسل أو أنبياء أو حكماء.. «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه». ولقد جاء هؤلاء الرسل والأنبياء على فترات متباعدة. ثم أودعها فى قلب آخرهم محمد عليه الصلاة والسلام، وذكره بمقامه بين إخوانه فقال له «وما محمد إلا رسول

قـد خلت من قبله الرسل». ثم ذكرنا بأن نهاية محمد كبشر بالموت لا تعنى نهاية رسالته فقال «أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئـا...» وهذه الآيـة نزلت على الرسول نفسـه لينقلها للناس من بعده عن طريق القـرآن... فالدين موجـود بين أيدينا مترابط الحلقـات، متصل الأسباب، بدأنـا الله به من عهد آدم عليه السلام إلى آخر زماننا، وبالتالى فإن القدم والبلى لن يصيبه أبدا وإن كـان الـدين لا يصيبـه البلى فهل بوسعـه أن يوائم مـا بين مبادئه العامـة ومقتضيات عصر كل شىء فيـه صار جديـدا... بمعنى أن نقول هل نطلب من إنسـان القرن العشرين أن يـرتد بفكـره وبسلـوكه إلى آلاف السنين فيصلى ويصـوم، ويحج، ويمتنع عن أكل مـا حـرم الله، ويلتـزم بـالدين سلـوكـا ومنهجـا، وتشريعا؟!

هنـاك أسئلـة تسبق الإجابـة على هـذا السـؤال أولها... هل المتغيرات المادية الرهيبة يمكن أن تقتحم فطرة الإنسان فتلغى هذه الفطرة.. وتحل محلها فطرة جديدة بحيث يتحول الإنسان إلى كيان جديد وصبغة جديدة؟!

وثانيهـا هل من مقتضى هذا التغيير نسخ كل العقـائد والأفكار والمثاليات والأخلاقيات التى كان يعمل بها من قبل؟.

الإنسان هو الإنسان.

الإنسان مخلـوق بكيانـه الروحى والمادى.. فـالروح وهى التى أسبغت عليه وصف الإنسان، وأمدته بـالحياة الحقة، سرها تفرد به خـالق الإنسـان، ولم يأذن للعقـل البشرى على الـرغم من قـدرتـه الهائلة بالتعرف على هـذا السر «قل الروح من أمر ربى ومـا أوتيتم من العلم إلا قليلا» فالكيان الروحى للإنسان، والذى يمده بالفطرة ويزوده بمقومـات الإنسانية فيها لم ولن يجد عليهـا جديد! ويبقى بعد ذلك الكيان الجسدى وهو الـذى يجمع كافة الأعضاء التى تمد

الإنسان بالحركة، هذا الكيان لم ولن يتغير أبدا لأنه نتاج الثنائية بين ذكر وأنثى.

وهذا النتاج خرجت منه كافة المخلوقات الحية ، والإنسان بينها وعلى الرغم من تمييز الإنسان بالعقل الراجح واللسان المبين، إلا أن بعضا من صفاته لم يحرم منها الحيوان والطير والزواحف، فالببغاء ينطق بلسان مبين وإن كان لا يفهم ما يقوله، والكلاب والذئاب لها ذكاء خارق، والنحل لديه قدرة التنظيم فى بناء كيان دولة قد لا يتوصل إلى مثلها الإنسان... فالقدرات الجسدية التى أوتيها الإنسان معظمها مشتركة ما بينه وبين الكائنات الحية.. حتى الأخلاق التى يعرفها الإنسان.. والتى قد ينحرف عن معظمها على الرغم من أهميتها فى التعايش السلمى مع الآخرين، نجد الحيوانات تستمتع بها ولا تملك التفريط فيها.

وكلنا نعرف وفاء الكلاب، وصبر الجمال، وتعاون النمل، والتعاطف ما بين الأمومة والطفولة فى جميع الحيوانات... فالإنسان يشارك هذه الحيوانات فى معظم تكوينها الجسدى وإن كان قد تفرد بالعقل المبدع إلا أنه وللأسف الشديد استعمل هذا العقل فى التخريب والقتل والجور، والحروب التى لا تتوقف فى عصرنا، تقف شاهدا على أن الإنسان قد أفرط فى استعمال عقله، ولم يقيده بالدين أو الخلق أو الإحساس بالمسئولية نحو الآخرين.

وفاء الكلاب وصبر الجمال

وحتى الغرائز التى متع الله بها الإنسان والحيوان، اكتفى الحيوان فيها بأداء وظيفة التناسل، أما الإنسان فقد أفرط فيها حتى صار عبدا مسخرا لها، وهو الآن مشغول بإلغاء أهم وظيفة الغريزة وهى التناسل لأنه يخشى مشاركة غيره فى الطعام والشراب!!

ومع هذا كله فقد كرم الله الإنسان وعزز مكانته بين سائر

مخلوقاته فقال «ولقد كرمنا بنى آدم».

ثم سخـر له كـافـة المخلوقـات من جماد وحيـوان، سخر لـه الشمس والقمر والـرياح وسخر لـه الحيوانات ليأكل منهـا ويركب ظهرها، ثم نصبه فى مكان عال مـن المخلوقات غير المرئية والمقربة جـدا من الله وهى الملائكة حين أمـرها أن تسجـد إجلالا وتكـريما للأب الكبير «وإذ قلنا للملائكـة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس..» بل عاقب هذا العاصى بحرمانه من الرحمة والجنة، مع الموافقة على طلبه بالبقاء بين الناس، وهـو قائم الآن بدور تخريبى رهيب، «قال أنظرنى إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين».

الإنسان سيد الموقف

هـذا الإنســان لم ولن يتغير.. روحـه هى روحـه، وجسـده هـو جسـده وعقله.. هـو عقلـه.. بـاستثناء أنـه فى بعض بقـاع الأرض استثـار عقله، فنشط وزاد انتـاجـه، ولكنـه قصر عن الوصــول إلى النهـاية ولن يصل إليهـا «وسع ربى كل شىء علما»، «ومـا أوتيتم من العلم إلا قليـلا» ويروى أن الـرسول قـال «لايزال العبـد يقول ما كذا ما كـذا حتى يقول خلق الله الخلق فمن خلق الله» فإذا جاءنا من ينكر علينا حقيقة من هـذه الحقائق الثابتة، مثل سر الروح، أو التركيب الجسدى للإنسان - وليس معـه برهان ولن يكون فإن من حقنا أن نرد عليـه قوله... يبقى السؤال قـائما هل بوسع المتغيرات المادية الجبارة أن تغير من فطرة الإنسان؟!

المتغيرات الماديـة ليست وليـدة اليـوم، وبـالتـالى ليست وليـدة الإنسان المعـاصر، إنها وليدة جهـود إنسانيـة مضنية شـارك فيها إنسان الغـابة زميله الـذى صعد إلى القمـر، كل منها أدى دورا، بل لعل إنسان الغـابة صا حـب فضل على ابنه الذى صعـد إلى القمر، وكلاهما لم يخلق جـديدا ولكنهما استفـادا من الامكانيـات المادية

التى أوجدها الله فى الأرض والماء والهواء والسماء.. وانسان الأمس كان يأكل ويشرب ويتناسل ويسالم ويحارب وهذه الوظائف يمارسها الانسان الجديد. وان كان ـ وللأسف الشديد ـ يمارسها بجشع أكبر وغلظة أشد. إنسان الأمس كان يقتل بالآحاد، مستعينا بالسهام والحراب، أما إنسان اليوم فيقتل الملايين بالقنابل الذرية. فماذا تغير فى الإنسان..

إنه هو هو .. بكيانه الروحى والمادى، وكل ما استجد عليه من أسباب مادية لم تغير من جوهره ثم أن المتغيرات المادية أضعف من الإنسان بكثير لأنها صدرت عنه فهو الذى ابتكرها وأنشأها فكيف ينتصر الفرع على الأصل..

لقد صنع الإنسان الطائرة ثم طار بها فى الفضاء فهل ينسب إلى الطائرة أم تنسب الطائرة إلى الإنسان، والإنسان صنع الراديو والتليفزيون والسينما، وهى كلها أدوات خرساء ولولا الإنسان ما نطقت وما تحركت فمن هو سيد الموقف: الشاشة الصماء، وصندوق الخشب أم الإنسان الذى يبث من خلالها؟!

إن كل ما استجد فى الأرض هو من صنع يد الإنسان توارثه من أخيه الإنسان القديم، وحتى لا نصف الإنسان الجديد بأنه شخصية خلاقة فى حين نقول أن إنسان الأمس لم يكن بهذا المستوى من الخلق والإبداع وبالتالى فإن إنكار إنسان اليوم للدين وللعبادة وتبرمه يعتبر عملا حضاريا!! هذا الكلام مردود بدليل أن إنسان الأمس قد أثبت قدرات هائلة فى الخلق والإبداع.. فبناة الأهرامات وبناة السور العظيم، وبناة بابل. وعظماء الفلسفة مثل كونفوشيوس، وبوذا، وأرسطو، وأفلاطون، هؤلاء لاشك كانوا بناة حضارة متكاملة..

وكان منهم المؤمن بالديانات المتفانى فيها، والكافر بها المتمرد

عليها.. كحال أبناء عصرنا الذين أطلقوا الصواريخ وصعدوا إلى القمر واخترعوا الكمبيوتر، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر ومنهم الزائغ البصر بين الإيمان والكفر. واسمح لى أن أذكر أمثلة عن تفاهة عقلية أبناء عصرنا ونقارنها بتفاهة عقلية إنسان الأمس إنسان عصرنا صنع تماثيل ومقابر لعظماء عصره - كما يسميهم - وهو يستعبد نفسه وفكره لأصحاب التماثيل والقبور.. وأحدث الأمثلة تماثيل ومقابر ماركس ولينين.. هذا ما فعله إنسان العصر وهو نفسه ما فعله إنسان الأمس يوم أن نحت صخورا من الجبال وصنع منها تماثيل ثم مثل أمامها صاغرا.

نخلص من هذا إلى أن المتغيرات المادية لم ولن تخلع الإنسان من طبيعته لأنها من خلق الإنسان وليس الإنسان من خلقها..

الماديات والعقائد :

القول بأن المتغيرات المادية يمكن أن تلغى العقائد الدينية وبالتالى تلغى العبادات من صلاة وصوم وحج..

هذا القول فيه جور كبير على الواقع.. لأن المتغيرات المادية الجديدة نشأت لخدمة عقيدة من العقائد سواء كانت عقيدة وطنية أو عقيدة إنسانية أو عقيدة مذهبية وألمانيا بنت حضارتها المعاصرة لتثبت أن الجنس الجرمانى هو سيد الأجناس، واليهود يعملون ويبتكرون ويغيرون على الأمم لخدمة العنصرية السامية وروسيا تكدح وتغير وتقتل لتخدم فكر ماركس ولينين.. ولكل هذه الدول، ولكل هذه المذاهب شعارات وطقوس، يقدسها الناس ويفدونها بالمال والأرواح فهل إذا قلنا أن راكب الصاروخ يجب أن يعلن كفره بالله وإيمانه بالكرملين والبيت الأبيض حتى ينجح فى مهمته هل يقبل منا هذا القول!!

إن قبول هذا القول فيه جور وظلم وتحقير للإنسان، وفيه ظلم

للعقيـدة.. لأن العقيدة تـدفع بـالإنسان ليكتشـف غوامض الأمـور ليزيد إيمانا وثقة بالله، ولقد كان لـلإنسانية فى سيدنا ابراهيم قدوة حسنة حين أخذ يتساءل عن ظواهر الكون ليزداد يقينا بالله.. وكان الـرسـول يـوصى المؤمن بـالتـأمل والتفكير ومحاولـة البحث عن الحقيقة قـال لأصحابـه «تفكروا فى خلـق الله ولا تفكروا فى ذات الله فتهلكوا».

ولقـــد ثبت لجميع المخترعين والبـــاحثين أنهم لابـد أن يبـــدأوا بحثهم من مخلوق محسوس أو غير محســوس، ثم يحاولوا تشكيل هـذا المخلـوق وتطـويـره ليؤدى الـدور المطلـوب منـه.. فـالأرض مخلوقــة، والماء مخلوق والبذرة مخلوقــة كلها مخلوقــة ابتداء، فإذا ما بذر الإنسـان البذرة ثم رواها بالماء فهل يعد هذا الإنسان خالقا لهذه الشجـرة!! والصاروخ الـذى حمل إنسـانـا إلى القمر، معـدن الصــاروخ مخلـوق أصلا والعنـاصر التى أدخلت فيـه مخلـوقـة، والإنسان الذى ركبه مخلوق أيضا والقمـر مخلوق، كلها مخلوقات فإذا تهيأ لإنسان أن يستخدم هـذه المخلوقات ليصل بها إلى القمر فهل هذا يدعوه للكفر أم للإيمان؟!

إن إقامــة سور بين الـدين والنمو الحضـارى يمثل تآمـرا ضد الـدين وضـد الحضـارة وضـد الإنسـان... والأفضل أن نقـول أن إنسان اليوم هـو إنسان الأمس، وأن المتغيرات المادية لم ولن تغير من طبيعة الإنسان.. كما أن المتغيرات المادية مهما بلغ شأنها فإنها لم ولن تغير من العقيـدة الدينيـة لأنها هى السيـد المنشىء للنفس الإنسانية.

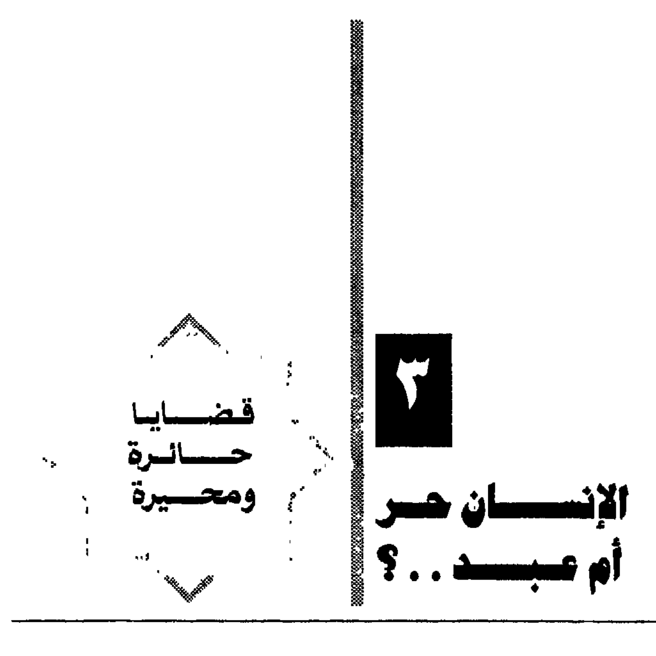
ولقـد آن الأوان لنقول لـلإنسان لا تقـل ما قـاله قـارون «إنما أوتيتـه على علم عنـدى» ولكـن قل «ربى زدنى علما».. وصـــدق الله العظيم «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا».



الإنسان حر أم عبد ؟

مسكين إنسان عصرنا .. مسكين لأنه مثقل بقيود وأغلال لا تعد ولا تحصى.. العالم كله فرض عليه أن يسكن داخل جدر دولة من الدول، والدولة تسكنه داخل إقليم، والإقليم يضطره أن يعيش فى مدينة أو قرية، وفى المدينة يعتقل داخل بيت.. وبعد هذا كله يجلس داخل فكر محدود أو مذهب معين.

فهل بعد هذا، الإنسان حر أم عبد؟؟



٣

الإنسان حر أم عبد..؟

فما هى حقيقة الإنسان؟؟ هذا التساؤل يحتاج لمجيب.. فمن يستطيع أن يتصدى للإجابة؟!

الذى يتصدى للإجابة لابد أن يكون على علم كامل بحقيقة الإنسان وجوهره.. فهل نكون منصفين للقضية المعروضة أمامنا؟؟.. وهى قضية الإنسان.. بمعنى : هل نقبل من الإنسان أن يصدر حكما لصالح الإنسان أو حكما ضد مصلحته؟

إن إعطاء الإنسان هذا الحق فيه جور على العدالة.. لأن الإنسان لا يحيط علما بكل شخصية الإنسان.. ولا يعرف من أخبار نفسه إلا النزر اليسير، فهو يجهل تاريخه.. يجهل أصله، ويجهل خلقه.. ويجهل حاضره ويجهل كل الجهل مستقبله.. فهل يستطيع جاهل أن يصدر حكما فى قضية لا يلم بكل جوانبها؟

وإذا أعطينـا الإنسـان هذا الحق نكـون كمن نصب نفسـه على منصـة القضـاء ليحكم فى قضيـة لا يعـرف شيئـا عن وقـائعهـا، ولم يسمع شهودها..

وهـو جـاهل كل الجهل بـالقـانون الـذى سيصـدر بمقتضـاه الحكم.. فتنصيب الإنسـان حكما فى قضيـة حـريـة الإنسـان أو عبوديته مرفوض شكلا وموضوعا، كما يقول رجال القانون..

فإلى من نلجأ لنستصـدر منـه حكما فى هذه القضيـة؟؟.. الـذى نلجأ إليه لابد أن يكون على علم كـامل بخلق الإنسان، وخلق المكان والـزمـان الـذى يعيش فيـه الإنسـان، وعلى علم بماضـى وحـاضر ومستقبل الإنسان.

فمن يكون هو ؟؟!

خالق الإنسان وحده هـو المحيط علما بخلق الإنسان وخلق دنيا الإنسـان، وخلق آخـرته.. فإذا أردنـا أن نـجيب على مسـألـة تتعلق بالإنسـان فعلينا أن نلتمس الجواب عند «عـالم الغيب والشـهادة».. الجواب عنـد الله وحـده.. وليس عنــد غيره.. «وسـع ربى كل شـىء علما ».

حقيقة الإنسان :

لقد أعلن الله تعالى بـأنه هوالذى خلقنا.. خلقنـا جسدا، ثم خلق الروح المهيمنة على هذا الجسد.

ثم سـواه ونفخ فيـه من روحـه، ثم استأثـر وحـده بعلم هـذه الروح ، وحجبها نهائيا من الإنسـان، «قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا».

ثم أخفى عنه مستقبله فى الدنيـا « وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا » كما أخفى عنـه موعد وكيفيـة نهايته مع الحياة: «ومـا كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا».

ثم أخفى عنه حقيقة خلقه له وكيفيته: «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون».

ثم أعلمه أنه ملازم له طوال حياته، وأنه قريب جدا جدا منه وأنه يعلم عن حقائق نفسه وهمساتها كل صغير وكل كبير من أمره. «ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد».

ثم أعلمه بالموطن الذى كتب عليه أن يسكنه فيه، وعن الرزق الذى قدره له: «وفى السماء رزقكم وماتوعدون».. «وجعلنا من الماء كل شىء حى».

ثم قال له عن سكناه: «ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين».

ثم أعلنه بنهايته ونهاية رزقه، ونهاية الأرض الذى يعيش عليها:«وإلى ربك المنتهى».

ثم أعلمه بالحياة الجديدة التى سيحياها بعد أن يستوفى أجله فى الأرض: «ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون».

فالذى خلق الإنسان، والذى يعرف كل أمره، والذى أسكنه الأرض، والذى ضمن له الرزق، والذى كتب له الحياة بقدر، وكتب نهايته، ثم يقوم ببعثه ثم حسابه ثم تقرير مصيره.. هذا الخالق وحده الذى بمقدوره أن يدلنا على حقيقة الإنسان أهو عبد أم حر؟

الإنسان عبد :

لقد اختار الله من بين خلقه صفوة من أعقل وأطهر الناس، وحملهم كتبا ليبلغوها إلى اخوانهم البشر، وطبيعى أن يتولى هؤلاء الرسل الصدارة والقيادة والأمانة، فكيف وصفهم الله؟ ولقد وصفهم الله بالعباد.. قال عن أبيهم ابراهيم والذى اختاره خليلا له: «إنه من عبادنا المؤمنين».

وأمر محمدا أن يعلن عبوديته لله: «إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها، وله كل شىء، وأمرت أن أكون من المسلمين».

فإذا كان الرسل وهم السادة والرواد، والمعلمون، والقادة عبادالله فهل يعز على الناس أن يكونوا عبيدا؟

وهؤلاء الرسل كرمهم ربهم تكريما لا حدود له فى دنياهم، ورفع ذكرهم، وأعز مكانتهم، ثم بشرهم بسعادة خالدة دائمة فى الآخرة.. ومع هذا ظلوا عبادا مخلصين كل الإخلاص لخالقهم.

وهناك عباد آخرون من المؤمنين الصادقين المقربين بعبوديتهم وربوبية الله.. هؤلاء رفع الله قدرهم ومكانتهم واعتبرهم من صفوة الناس لأنهم أقروا بالعبودية لله.. «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما».

حتى الملائكة وهم عالم يتصف بالطهر والصفاء والقرب من الله تعالى، وصفهم الله بأنهم عباد شأنهم شأن البشر، قال: «وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا..».

إذا كان الله قد وصف صفوة خلقه وأحبهم إليه بأنهم عباد.. فهل يعقل أن ينال الإنسان العادى درجة أعلى من هذه الدرجة؟.. المنطق يقول بغير ذلك.. وهذا ما سجله القرآن الكريم «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون».

وقال: «ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت..»

فالله تعالى وصف الإنسان بأنه من عباده، ولكنه لم يجعل عبادته تحقيرا له أو امتهانا لقدره بل على العكس من ذلك فقد أعلن تكريم هؤلاء العباد «ولقد كرمنا بنى آدم...».

ووصف العباد المؤمنين بصفتهم أنهم علماء، وأنهم على خلق قويم وأنهم أصحاب عزة وكرامة..

«وعباد الـرحمن الذين يمشـون على الأرض هونـا وإذا خاطبهم الجاهلـون قالـوا سلامـاً ، والذين يبيتـون لربهم سجـدا وقيامـا، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عـذاب جهنم إن عذابها كان غراما، إنها ساءت مستقرا ومقامـا، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما، والذيـن لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حـرم الله إلا بـالحق ولا يـزنـون ومن يفعل ذلك يلق آثاما...».

فالعبودية لله تكريم وإعزاز.. وتزكية للإنسان.

الإنسـان حـــر:

والله الذى أسبغ صفة العبودية على الإنسان منحه حرية كاملة.

وكان أروع ما فى هـذه المنحة، منحة الحرية، إذا جعـل عبودية الإنسان لله فقط.. فهـو مثلا ليس عبدا لرسـول أو لنبى، على الرغم من أن هـؤلاء من أقرب الخلق إلى الله وأعـزهم عليه، ومع هـذا فهم ليسوا أربابا للناس.

وقد سجل القرآن هذا المعنى على لســان جميع الرسل والأنبياء. فيوجه الله السـؤال لسيدنا المسيح عليه السـلام: «أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله، قـال سبحـانك ما يكـون لى أن أقول ما ليس لى بحق..

ثم يقـول: «مـا قلت لهم إلا ما أمـرتنى بـه.. أن اعبـدوا الله ربى وربكم...».

ولـذلك يكـون الله قد حـرر النـاس من كل ضروب العبـادة، إلا عبادته هو..

فالإنسـان ليس عبـدا لرسول أن نبى، ولا لإنسـان أيـا كان قدر هذا الإنسـان، وليس عبدا للطبيعـة بكل قدراتها، وليس عبدا لمذهب أو فكـر أو عقيدة أيـا كـانت هذه العقيـدة، ولم يـدع الله سبحانـه

وتعالى للإنســان أن يحدد إطار حريته لنفسه.. بل رسم لـه معالمها الكلية ثم تركه ليجتهد من خلالها..

فأولا منحـه صفة العـزة فى الأرض إذا كان مـؤمنا: «ولله العـزة ولرسوله وللمؤمنين».

ثم منحه حريـة الإعتقاد: «لا إكراه فى الدين قـد تبين الرشد من الغى».

ثم طلب منه التأمل والتفكر واطلاق الطـاقات الخلاقة فيه: «وفى أنفسكم أفـلا تبصرون».. «إن فى خلق السموات والأرض واختـلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب».

ثم دعـاه ليسيح فى الأرض ويتأمـل فيهـا وينشـد رزقـه حيثما وجد: «فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور».

ثم جعلـه مسئـولا عن نفسه محاسبـا من قبلـه فقط: «يـا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم».

ويقول: فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها».

وفى نفس الـــوقت خفـف عنـــه الأعبــاء: «لا نكلف نفســا إلا وسعها...!».

وحتى اذا أخطأ فى حق نفســه وظلمها فتح الله لـه بـاب التوبـة ليمسح بها خطاياه: «كتب ربكم على نفسه الرحمة...».

وفى مجال البحث العلمـى طلب أن يــــدرس ويتـأمل، واعتبر العلماء من أكثـر النـاس قربـا لله، وحبـا فيـه وخوفـا منـه: «إنما يخشى الله من عباده العلماء...».

سيقول البعـض ماذا تعنى الفـروض من صلاة وزكـاة وصوم وحج.

المتأمل فى هذه الفرائض يجدها من أقـوى دعائم حرية الإنسان، فالصــلاة تؤكد أن العبـودية لله وحده وليس لغير الله، هـذا التأكيد

يبدأ من الصباح إلى المساء.. فى كل وقت يعلن المصلى اسم الله وأنه أكبر.. وهذا يعنى أن كل المخلوقات أصغر وأقل.. ثم سجود وركوع لله وحده فإن سجد أو ركع لغير الله فقد كفر بالله وضيع بالتالى حريته..

والزكاة هى قسم من المال يقتطعه القوى والغنى من ماله الحلال ليساعد به أخا له أقل منه قدرة على الكسب، أو أضعف منه قوة.. وهذا لا يمس حرية الإنسان فى شىء بل يؤمنها..

والصوم، تهذيب وإصلاح للنفس ودعوة للتعاون مع الغير، وتحرر من سلطان شهواته.. والحج رحلة إلى الأرض التى يكر إليها الإيمان، وهى رحلة القادر فقط، وهى رحلة من القيود إلى الحرية..

أحرار عصرنا!! قد يعترضون على هذا الكلام بحجة أن إنسان اليوم يعيش عصر الحرية.. حرية أعلنتها الهيئات الدولية فى مواثيقها (كميثاق حقوق الإنسان) وسجلتها دساتير الدول.. سجلت حرية الدولة وحرية من يدخلها.. هذا عدا حرية الاعتقاد وحرية الكلمة وحرية التصرف..

لكن الواقع يكذب دعاة الحرية فى عصرنا، فلقد ابتلى أبناء القرن العشرين وهم أكثر أبناء القرون السابقة اعتقادا بحريتهم: ابتلى هؤلاء المساكين بضروب من العبودية التى لا تقل كثيرا عن عبودية أبناء غرب أفريقيا أو أبناء القوقاز أو أسرى الحروب.

فقد ابتلوا بقيود جديدة ذهبت بكل حريتهم.. والغريب فى الأمر أنهم رضوا بهذه القيود، وتخيلوها أساور من ذهب يزينون بها أيديهم.

هذه القيود سمى بعضها بالحدود الإقليمية، وسمى البعض الآخر بالدساتير والقوانين والمصلحة العامة، وأطلق على بعضها الديموقراطية، وعلى البعض الآخر الشيوعية و..و..و..

فالإنسان في عصرنا ليس له الحرية أن يخطو خلف الحدود والتي تسور دولته إلا بإذن من هذه الدولة، وبموافقة الدولة الأخرى، فهو معتقل داخل حدود دولته، ومعتقل في الدولة الأخرى، التي تطلق عليه اسم (الأجنبي).. هذا الاعتقال الدائم الذي يعاني منه أربعة بلايين إنسان. تآمرت قوانين دولهم على فرض قيود قانونية على حريتهم. فإذن الإنسان عبد مقيد إلى أرض محدودة.. وهو لا يستطيع الفكاك من قيده إلا بإذن من السلطة المقيدة ولفترة محدودة..

والعجيب أن الإنسان بعد أن يمضي فترة طويلة رهن هذا القيد تصبو نفسه إليه، ويزيد تشبثه به.. وبالتالي يتم الوفاق بين السيد والعبد..

والإنسان في عصرنا تستعبده الدساتير والقوانين.. وتوثقه بموادها ولوائحها.. فالدساتير وهي التي تنعقد لها السيادة على القوانين والنظم تقوم كالأسوار العالية حول قطعة من الأرض وقطاع من الناس، فتحدد لهم موقعهم من الأرض، وتفرض عليهم هوية وفكرا عاما، ثم تفرض عليهم سلطات ثلاث، واحدة تضع لهم قيودا قانونية؟، ثم تسلم هذه القيود السلطة التنفيذية، التي تقبض باسم القوانين على رقاب الناس، ثم تدخل هذه القوانين إلى دور القضاء لتفرض عليهم فرضا..

والاستعباد القانوني هذا يتفاوت من دولة إلى أخرى، ومن حاكم وآخر، وأشد القوانين استعبادا تلك التي تصدر من حاكم فرد، لأنه يصنع من القوانين قيودا محكمة ليخنق بها الشعب ويشنق حريته..

وقد كان (بول) إمبراطور روسيا صريحا حين سأله الشعب عن الدستور فأشار إلى صورة وقال (هنا الدستور)..

والغريب فى الأمر أيضا أن الشعوب تستسلم لسلطان هذه القوانين وتخفض لها جناح الذل.. وذلك بحجة أن القوانين ـ وإن كانت مقيدة للحرية ـ إلا أنها بيدها الصالح العام.. ولو سألنا الشعوب عن آثار القوانين فى حياتهم لوجدناها حارسا أمينا لصالح الأقوياء، وسجونا وأغلالا فى أيدى الضعفاء فالقوانين فى عصرنا صنعتها طبقة من أصحاب المصالح لتخدم بها نفسها.. وللأسف يشترك فى هذا الموقف صانعو القوانين الاشتراكية. وخبازوا القوانين الرأسمالية..

والمصلحة العامة ..

عبارة جميلة ومصطلح يغرى بالخير، إلا أنها استعملت لقهر الأفراد، والتسلط عليهم، لأنها صدرت عن ارادة المجموع، وضغطت بشدة على حرية الفرد، وهنا تلعب أهواء السلطة دورها فتسجن ارادة الأفراد باسم المصلحة العامة.. ويضطر الجمهور الغافل عن حريته إلى التسليم بمتطلبات المصلحة العامة، وينسى حريته وحقوقه..

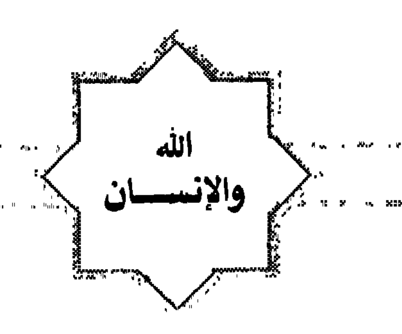
ونظم التعليم، ووسائل الإعلام يصنعها قوم، ليصنعوا منها فكراً طبيعيا يسلس به قيادة الشعب بحيث يكون عبدا للقوانين والأنظمة وأوامر ونواهى السلطة.. فالتعليم والإعلام يعملان فى عصرنا على تكبيل عقل الإنسان، وإفراغ ما تشاؤه السلطة فيه مستعينة فى ذلك بوسائل متجددة ومغرية ، الصحف والإذاعات والأفلام كلها تصب توجيهات السلطة فى الرؤوس وتستعمرها تماما..

هذه القيود مهما أطلق عليها الانسان من مسميات فإنها باجتماعها على إنسان القرن العشرين قد فرضت عليه أن يعيش

حبيسـا بداخلهـا عبـدا لإرادتهـا .

الحل هو أن يسلم الإنسـان بعبوديتـه لله ليكتسب من بعد ذلك كل حريته..

فإذا حددنـاه بإقليم أو قانـون. فإن هذه الحدود لن تنـال من الحرية الكبرى التى اكتسبها من ربـه.. لأنها منحة غالية ومنح الله لا ترد «بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان...».

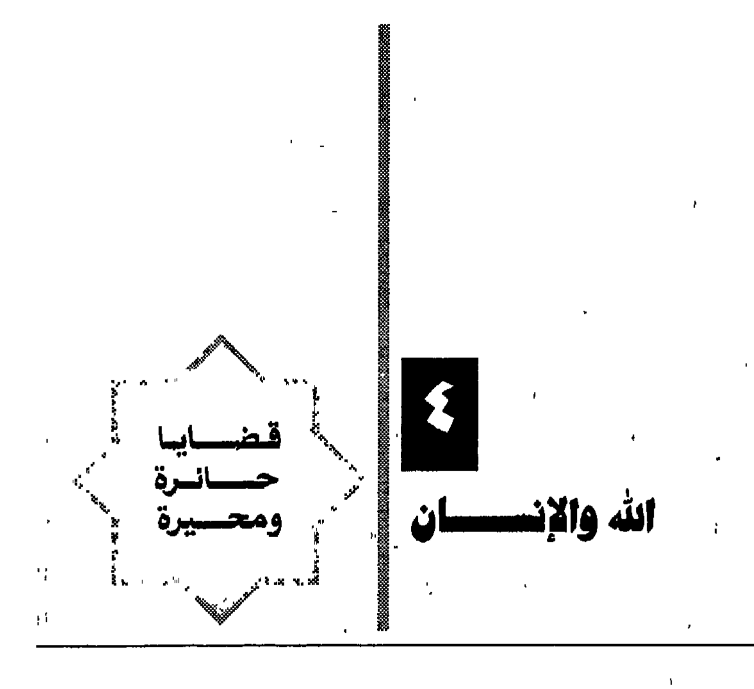


٤

قضيـة البعث من القضايـا التى عذب الكتـاب والفلاسفة أنفسـهم قديما وحـديثا فى البحث عنها، وعـذبوا الشعـوب معهم، وكـان ولايزال عـذابهم يدور حول سؤالين: لم نبعث.. وكيف نبعث..؟

ولو أنهم تأملوا آيـة واحدة من الآيات الخمس عشرة التى تنـاولت قضيـة البعث لكفوتـا أمـرهم، ولكنـه الجدل.. والجدل العقيم، وادعـاء العلم ألقى بهم فى تيه لا حـدود له.. «يجادلـونك فى الحق بعد ما تبين كـأنما يساقون إلى الموت وهـم ينظرون».

ويسخر القـرآن منهم ومن إفلاس حججهم بقـوله «ومن النـاس من يجادل فى الله بغير علم ولا هـدى ولا كتاب منير، ثانى عطفه (أى متكبر) ليضل عن سبيل الله، له فى الـدنيا خزى ونـذيقه يوم القيـامة عذاب الحريق».



ولسوف نعمل جهدنا فى هذا البحث أن نعرض الآيات والأحاديث النبوية لتزيدنا ثقة وإيمانا بحقيقة البعث، وهى كفيلة بهزيمة أصحاب الحجج الواهنة.

ولقد وجدت فى كتاب «الله والإنسان» للأستاذ عبدالكريم الخطيب خير معين لى فى هذا البحث، جزاه الله عنا خير الجزاء.

يقول الكاتب فى مطلع حديثه عن البعث أن الموت هو الذى أثار فى الإنسان غريزة البحث عما بعد الموت، ولذلك شغل نفسه بهذه القضية حتى قبل ظهور الرسالات السماوية.. ولقد استعرض حالة الأمم والشعوب منذ آلاف السنين وكشف لنا عن مفهوم البعث وعن تصورهم له.. ولسوف نمر سريعا على شريط الأحداث الماضية.. ثم نعبر بها إلى عصر الإسلام..

البعث عند الفراعنة :

لقـد كـان للفراعنـة حظ وفير واهتمام كبير بقضيـة البعث، بل أنهم شيدوا حضـارتهم المتمثلة فى الأهـرامات والمعـابد مـن خلال إيمانهم بالبعث بعـد الموت.. إلا أنهم كانـوا مثار عجب فى تكفيرهـم فقصروا الخلود على الذين لا يرتكبـون الآثام، إن هؤلاء وحدهم هم الـذين يحظون بـرحمة «أوزيـر» فيمنحهم الحق فى دخول حـدائق السماء حيث الرخاء والأمن والسلام. أما الأشرار فإنهم لن يبعثوا أبـدا بل يظلـوا فى قبـورهـم يجوعـون ويعطشـون، وتسلط عليهم التماسيح.. ويتـولى «أوزيـر» بنفسـه الحكم على من لـه الحق فى الخلـود أو من يترك للتماسيح، وعنـده ميـزان يضع فيـه قلب الإنسان فى كفـة ويضع فى الكفة الأخـرى ريشة، ثم يصـدر الحكم عليـه.. ويشارك «أوزيـر» فى هـذه المحكمـة مجموعـة من القضـاة والمحلفين..

ولقد امتـد هذا الحق ــ أى حق المحـاكمة وإصـدار الأحكام إلى الكهان فاتخذوا منهـا تجارة مربحة فمنحوا «صكـوك الغفران» لمن يشـترى منهم كتب الموتى» التى ستـدفن معهم وتكون شفيعـا لهم عنـد «أوزير».. ونـكتفى بـذكـر ما تضمنـه أحـد كتب الموتى من أدعيته..

«سلام عليك أيها الإله الأعظم رب الصـدق والعدالة.. لقد وقفت أمامك يارب وجىء بى لكى أشـاهد ما لديك من جمال.. أحمل إليك الصـدق.. أنى لم أظلم النـاس.. لم أظلم الفقـراء.. ولم أفـرض على رجل حر عملا أكثر مما فـرض هو على نفسه.. ولم أمت إنسـانا من الجوع.. ولم أبك أحدا ولم أقتل إنسـانا.. ولم أخن أحداً ..

أنا طاهر.. أنا طاهر.. أنا طاهر».

وفى الديانة الفارسية:

أما الـديانة الفارسيـة المشهورة « الزرادشتيـة » فهى تقوم على أسـاس أن الإنسـان لـه رسـالـة على الأرض، وأنـه إذا أدى هـذه الرسـالة على الـوجـه الأكمل كتب لـه الخلـود، وصـار من عـالم الملائكة فى الملأ الأعلى.. أمـا إذا قصر فإنه يبقى فى عالم الظـلام أبد الدهر..

وإن هنـاك معـركـة بين الخير والشر ستستمـر اثنى عشر ألف سنـة ثم تنتهى بـانتصـار الخير وأهلـه.. ولا يهتم أصحـاب هـذه الديـانة بجسد الموتى، فـلاهم يحتفظون به كما فعل الفـراعنة، ولا يحرقونـه كما فعل اليونانيون القـدامى، بل يتركونه لتأكلـه الطيور والكلاب.

وعند الهنود :

أما الهنود، فكان ومايـزال يؤمن معظمهم بتناسخ الأرواح، ولذلك فهم ينكرون البعث، أما العقاب والثواب فليسا فى جنة أو نار، ولكن فيما ستـؤول إليه حـال الـروح بعد أن تنتقـل إلى جسد آخـر من الحيوانات، فـالروح الطيبة تسكن حيوانا راقيا، أمـا الروح الخبيثة فتسكن حيوانا حقيرا..

والهندى يعيـش عمره فى شقاء لأنــه لا يدرى أيـن يحل جسده، هل سيحل فى حمار أو كلب أو دودة.

ولـذلك فالهنـود يفضلـون إحراق أجسـادهم بعد مـوتهم، وهم بهذا ينكرون فكـرة البعث من أسـاسها، وبـالتالى ينكـرون الثواب والعقاب.

ويرى «بوذا» أن السعـادة لا تتحقق إلا بإخماد شهوات الجسد وإنكار الـذات حتى يندمج الإنسـان فى المطلق ويتحقق اتحاد الفرد بالله وبهذا تستكمل سعادته..

الأديان السماوية والبعث:

أجمعت الكتب السماوية على الإيمان بـالبعث، والحساب والجنة والنار..

الديانة اليهودية:

يقول المؤرخ الأمريكى «ول ديـورانت» أن أهواء اليهود لعبت فى التـوراة، وحولتـه إلى سجل يحكون فيـه الأحداث التى مـرت بهم، سواء أكـانت أحداثا سعيـدة أو بغيضـة لديهم، والتـوارة كتبت بعد مئات السنين من نزولها على سيدنا مـوسى، وكان الدافع الرئيسى لتدويـن التوراة أن الشعب اليهـودى شرع يرتد عـن عبادة «يهوه» (اسم الله عن اليهود» إلى عبادة آلهة اجنبية.

وهذا يسمى بـالعهد القديم، أمـا العهد الجديد والمعمـول به إلى يـومنـا هذا فقـد دونـه « عـزرا » الكاهن قبل ميـلاد المسيح عليـه السلام بـ٤٤٤ عاما ، ثم تلاه على قومـه فآمنوا به، وهو ما يسمى بسفر (شريعة موسى).

ويقـول ديـورانت عن نظرة اليهـود إلى البعث: (إن اليهـود قلما كانـوا يشيرون إلى حياة أخرى بعـد الموت، ولم يرد فى دينهم شىء عن الخلـود، وكان ثـوابهم وعقابهم مقصوريـن على الحياة الـدينا، ولم تدر فكرة البعـث فى خلد اليهود إلا بعد أن فقـدوا الرجاء فى أن يكون لهم سلطان فى هذه الأرض).

هذا مـا قالـه ديورانت.. إلا أن الأستـاذ عبدالكـريم الخطيب رد عليه بقـوله: ونحن نخـالفه فى هـذا، لأن شريعة مـوسى لاشك أنها حملت صـــورة واضحـة عـن البعث إلى بنى اسرائيل، وكـــذلك عن الحســاب وعن الجنـة والنار، وإن يكن «بنى اسرائيـل» قد عبثـوا بهذه الصورة فى عهـد من عهودهــم، فإنهم جددوا العهـد والتمسوا

الحياة الآخرة فيه كان أقرب شيء إليهم ما فى شريعة موسى من الحياة الآخرة..

الديانة النصرانية:

يقول المؤلف لقد كانت مهمة المسيح عليه السلام حيال (خراف بنى اسرائيل) - كما كان يدعوهم - أن يبعث فى قلوبهم الصلدة المتحجرة قطرات من الرحمة والتعاطف والحب، أما بالنسبة للآخرة فكانت نذرها مدونة فى كتبهم لكنهم لا يعملون لها حسابا، فكان يذكرهم بها، ويستحثهم على عمل الصالحات..

ويذكر المؤلف أن السيد المسيح كان يبشر الصالحين بملكوت السماوات، ويحذر المذنبين من جهنم، فيذكر نصا ورد فى إنجيل متى (طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السماوات، طوبى للحزانى فإنهم يتعزون، طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون، طوبى للرحماء لأنهم يرحمون، طوبى لأتقياء القلب لأنهم يعاينون الله).

ويقول فى نص آخر من الآخرة (لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها ، بل خافوا من الجرى الذى يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما فى جهنم).

خلاصة القول أن الديانة النصرانية تؤمن بالبعث والحياة الآخرة وأن المحسنين سيلقون جزاءهم، وأن الأشرار سيعذبون..

الإسلام والبعث :

نلاحظ ونحن نقرأ القرآن الجمع ما بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر فى معظم آيام القرآن.. «وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر».. «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر..».

بل يحذر القرآن وينذر الذين لا يؤمنون باليوم الآخر، «قاتلوا

الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر..».

ويعقب مؤلف كتاب «الله والإنسان» على هذا بقوله (وهكذا نجد الإيمان باليوم الآخر يقترن دائما بالإيمان بالله، حتى لكأن الإيمان بالله لا يتم إلا إذا اتصل به إيمان باليوم الآخر).. ولو وددت أن الأستاذ الخطيب استغنى عن تعبير لكأن. لأن الأيمان باليوم الآخر ركن أساسى من أركان الإيمان.. فى حين أحسن فى تعقيبه حين قال (الإيمان بالله عقيدة ثمرتها العمل بأوامر الله، واجتناب نواهيه، وابتغاء رضوانه فى الدار الآخرة، «وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون».

ويحيلنا المؤلف إلى آيات القرآن الكريم التى شرحت لنا قضية البعث تفصيلا، كما كشفت لنا عن الأفكار الخاطئة التى كانت تسيطر على العرب قبل الإسلام.. كيف عالجها بالمنطق والحكمة.

ينقل إلينا القرآن الكريم تساؤلات الكافرين بيوم البعث، كما نقل إلينا سخريتهم من حقيقة البعث:

«وقالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون».. «قل من يحيى العظام وهى رميم».. أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد».

«ويقول الإنسان إئذا ما مت لسوف أخرج حيا».

هذا الإنكار والاستهزاء قوبل بالحجة الدامغة.

يقول الله تعالى: «وضرب لنا مثلا ونسى خلقه، قال من يحيى العظام وهى رميم، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم»... ثم يذكره بخلقه الأول، «أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا».

ثم يسوق الله تشبيهات غاية فى الحكمة والبلاغة لإقناع المنكرين: «قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون».

ويعقب المؤلف على هذا التشبيـه بقولـه (فالشجـر الذى ينضح ماء يملأ فروعه وأصولـه يتحول إلى نار موقدة، الماء يصير نارا»» ليس هذا التحــول فى طبائع الأشياء مــن الضد إلى الضد فيـه دلالة قاطعة على قدرة الخالق، ألا يقدر من يخلق هذا الشجر الأخضر أن يجعل من هذه العظام أجساما حية.

ويزداد الجدل فيـزداد التحدى. «وقالوا أئذا كنـا عظاما ورفـاتا أإنا لمبعوثون خلقـا جديدا؟!» هذا الإنكار يقابلـه رد من لون جديد: «قل كـونـوا حجـارة أو حديـدا، أو خلقـا ممـا يكبر فى صــدوركم، فسيقولون من يعيدنا، قل الذى فطركم أول مرة!..».

ويعقب المؤلف على هــذا التحـــدى الكبير بقـولـه (هــذا الجواب يدعـوهم لأن يخرجوا جملــة من عالم الأحيـاء إلى عالم الجماد،»... «كونـوا حجارة أو حـديدا» أو أى شىء يكبر فى صــدوركم مسـافة بين الحياة وشبه الحياة.. فإذا صـاروا إلى هذه الكائنات الممعنة فى الموات وظل السؤال كائنا فى كيانهم «سيقـولون من يعيدنا» ويكون الجواب «الذى فطركم أول مرة».

أسلوب آخر للإقناع :

أخذت سورة «الحج» بأسلوب جـديد فى الإقناع يحسن أن نضع النص بأكمله أمامنا ثم نتأمل الحكمـة منه: «يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث، فإنـا خلقنـاكم من تـراب ثم من نطفـة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقـة لنبين لكم، ثم نخرجم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم، ومنكم من يتـوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعـد علم شيئا، وترى الأرض هـامدة فإذا أنـزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شـىء قديـر، وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور».

يشرح لنا المؤلف طرفا من هذه الآية فيقول: لقد دار هذا التراب فى دورات الخلق والتكوين، وتقلب فى أطـوارها، ترابـا، ثم نطفة، ثم علقة ثم مضغـة، ثم جنينا ثم طفـلا ثم تدرج فى مـدارج الحياة من الصبا إلى الشباب إلى الاكتهال والشيخوخة..

ثم يتساءل: هل يقع فى عقل عاقل أن ينكر عودته من هذا التراب إلى الحياة مرة أخـرى، لقد كان ترابا فصار إنســانا عاد إلى التراب، فماذا يمنع أن يصير إنسانا مرة أخرى.

وتتضمن الآية صـورة أخرى عن الأرض الميتـة الهامدة يصب فيهـا الماء فإذا الحيـاة تموج فيهـا، وإذا الجنـة تخرج من كل فج منها؟.. فمن أخرج من التراب بشرا سـويا؟! ومن أخرج من الأرض ثمرا جنيا ؟! ذلكم هو الله..

ويـذكـر الكاتب مجموعـة من الأحـداث التى وقعت فى الماضى أوردهـا القرآن الكـريم ليـؤكـد للناس أن البعث أمـر ممكن عمـلا فيضرب لنا ثلاثة أمثال:

يقـول الله تعالى: « أو كـالـذى مر على قـريـة وهى خاويـة على عروشهـا، قال أنى يحيى هذه الله بعـد موتها، فأماته الله مـائة عام ثم بعثه، قال كم لبثت، قال لبثت يـوما أو بعض يوم، قال بل لبثت مائة عـام، فانظـر إلى طعامك وشرابك لم يتسنـه، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للنـاس، وانظر إلى العظام كيـف ننشزها ثم نكسـوها لحما، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير».

ويعقب المؤلف بقـولــه : إن الله قـد حفـظ أجسـاد الإنســان والحيـوان والجماد مـائة عـام دون أن تتحلل، فى حين أنها تفسـد وتتحلل بعد سـاعات فى حياتنـا العادية، فـالذى حفظها مـائة عام يمكن أن يحفظهـا مئـات الألـوف من الأعـوام، وهـو القـادر على إعادتها فى الصورة التى يراها.

ويردد الكاتب تساؤلات خليل الـرحمن ابراهيم عليه السلام من حقيقة البعث «وإذ قال ابـراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى، قال أولم تؤمن، قـال بلى ولكن ليطمئن قلبى، قال فخـذ أربعة من الطير فصرهن إليك، ثم اجعل على كل جبل منهم جـزءا، ثم ادعهن يأتينك سعيا، واعلم أن الله على كل شـىء قدير».

ويعقب الكـاتب بتساؤل: (وهل مـا يقع لأجسـاد الموتى شـىء غير هذا؟! فبعث هذه الأجساد مشابه تماما لبعث الطيور .

وآخـر مثل يضربه مـاوقع لأصحـاب الكهف الذين أمـاتهم الله ٣٠٩ من الأعوام ثم بعثهم وكلبهم أحياء.

البعث يوم القيـامة يكون بالـروح والجسد معا: وليس بـالروح وحـدها كما زعم بعض الفـلاسفة.. وفى هـذا يقول الله تعـالى: «كما بدأنا أول خلق نعيده..».

يقول: «والله أنبتكم من الأرض نباتـا، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا».. ويقوله: يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى».

وفى الحديث القدسـى: (أعددت لعبـادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».

فلفظ العبد يعنى الجسد والروح..

الغرض من البعث:

البعث حدده القـرآن الكريم فى مـواضـع كثيرة، فذكـر منها: «إن الساعـة آتية أكـاد أخفيها لتجزى كـل نفس بما تسعى».. «ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى».

فالمقصود من البعث هو محاسبـة الإنسان على ماقدمت يداه فى الحياة الدنيا، ثم يتم القضـاء فى أمره إما جنة أو ناراً أبدا.

البعث للجميع فى وقت معلـوم، سيبعث النـاس جميعـا يـوم

القيامة سواء منهم من عـاش منذ آلاف السنين أو من ستقوم عليه القيامـة.. يقول الله تعالى: «فـاستمع يوم ينادى المنـادى من مكان قريب، يـوم يسمعون الصيحة بالحق، ذلك يـوم الخروج، إنا نحن نحيى ونميت وإلينـا المصير، يـوم تشقق الأرض عنهم سراعـا ذلك حشر علينـا يسير».. ويقــول: «فإنما هى زجـرة واحـــدة، فإذا هم بالساهرة».

فالبعث سيكون للناس جميعا وفى وقت معلوم.

يرد القرآن على هذا التســاؤل: «وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيـه إلا أمم أمثالكم، مـا فرطنا فى الكتـاب من شيء، ثم إلى ربهم يحشرون».. ويقـول فى مـــوضع أخـر «وإذا الـــوحـوش حشرت».

ويقول لنا الإمام أحمد حديثـا رواه أبوذر قال: رأى رسول الله صلى الله عليـه وسلم شاتين تتنطحـان فقال: يـا أبا ذر هل تـدرى فيما تتنطحان؟ قال لا، قال لكن الله يدرى وسيقضى بينهما.

إلا أن الحيوانـات كلها ستصير يـوم القيامـة إلى تراب، ويتمنى الظالمون والكـافرون مصير الوحـوش والكلاب والقرود ويقـولون «ياليتنى كنت ترابا».

ويلى البعث الحســاب.. ويلى الحساب الحكم العـادل بالجنـة أو النار.

«وكل إنســان ألزمنـاه طائره فى عنقـه، ونخرج لـه يوم القيـامة كتابا يلقاه منشورا، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا».

٥

الإنسان بين العــــذاب والرحمــة

كيف نعيش بلا رحمة، والرحمة سكينة العانى وحلم اليائس. وغوث الملهوف ودواء الموجع.. وشفاء النفوس من كل آلامها؟؟

ومن يكــون الـرحيم الــذى تسع رحمتـه الإنســـان والحيوان والطير!!

إنه «الرحمن الرحيم».

والـرحمن الـرحيم منح رسلـه صفـة الـرحمة وخص محمدا آخر هؤلاء الرسل بأنه رحمة مهداة للإنسانية وكل الكائنات الحية.. فقال عنه!!

«وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين».

ووصف النبى نفسه بقـوله (إنما أنـا رحمة مهداة) ثم طـالب النـاس جميعا بـأن يكونـوا رحماء بينهم.. «محمـد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم...»

يـدعــو رســول الله النـــاس جميعـا للتراحم بقــولـه (الـراحمون يرحمهم الله، ا رحموا من فى الأرض يـرحمكم من فى السماء).

ووصف نبيه بأنه رحمة وأوصى الناس بالرحمة.. فلم تقـدم القسوة والعـذاب على المغفـرة والنار على الجنـة.. فى حين أن الله كتب على نفســه الرحمة «كتب ربكم على نفســه الرحمة».





الإنسان بين العذاب والرحمة

الرحمة للجميع باستثناء المشركين:

« إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

على ضوء هذه القاعدة يمكن أن نقول أن رحمة الله تبسط ظلالها على كل الناس باستثناء من يصر على رفض هذه الرحمة، وبإنكاره من يملك منحها.. فالذى يشرك بالله ينكر الله، وبالتالى فهو ينكر رحمته وعطاءه.. وتكون النتيجة أنه يحرم من الرحمة والمغفرة ويستحق العقاب.

سيقفز سؤال، وهل يعفو الله عن القتلة واللصوص والزناة والمرتشين، ولاعبى القمار؟؟

الجواب تكفل به خالق الإنسان، والذى يعلم خبايا نفسه، وخلجات قلبه، ولنستمع لهذا النداء الرائع من الخالق الرحيم «قل

يــا عبادى الذين أسرفوا على أنفسـهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم.

هذا الإعلان يظل كل الناس بـاستثناء الذى يصر على الكفر، أو يصر على لإثم. ويوافق هذا البيـان إعلان آخر من رسـول الله حين قال (كلكم يـدخل الجنة إلا من أبى) فلما سئل عن وصـف من يأبى دخول الجنة قال (من أطـاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى)، وطاعة الرسـول من طاعة الله، «من يطع الرسـول فقد أطاع الله».

ولقـد كان من حكمـة الله أنه امتحن صفـوة خلقه وهم الأنبيـاء والـرسل فى قضـايـا منوعـة، ثم هيأ لهم فـرص النجـاح، حتى إذا ما امتحن الناس من بعدهم أمكنهم علاج أخطائهم.. ولنضرب أمثلة لذلك :

● الأب الكبير آدم عليه السلام يتعـرض لإغراء الشيطان فيأكل من شجـرة محرمة، ثم يعـاقب بـالخروج من الجنة، ثم يتـوب الله عليـه، «فتلقى آدم من ربـه كلمات فتـاب عليـه، إنـه هـو التـواب الرحيم».

● وتعرض لنـا قصة نبى جمل الله صـورته، فتغرم بـه امرأة عـزيـز مصر، وتحاول بكل وسـائل الإغراء والقهـر أن تستـدرجـه لـلإثم، فيعتصم الـرجل بـالله، فتأتيـه النجـدة: «وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكـن من الجاهلين، فاستجاب لـه ربه فصرف عنه كيدهن، إنه هو السميع العليم».

●ويتعرض سيـدنا موسى لمحنـة من لون آخـر، فحينما تدخل بين أحد أتبـاعه وأحد خصومـه ولكز خصمه فوقع قتيـلا، استجار بالله وألح فى طلب العفو فاستجيب لـدعائه، «فـاستغاثـه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكـزه موسـى فقضى عليه، قال إن هذا

من عمل الشيطان إنه عـدو مضل مبين، قال ربى إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له، إنه هو الغفور الرحيم».

● وذكـر لنـــا القـرآن الكثير من المواقف التى تــولى الله فيهـا تصحيح مـواقف لــرسـول الله محمـد منهـا قصــة عبـدالله بن أم مكتـوم، «عبس وتـولى، أن جاءه الأعمى... » ومنهـا الإفـراج عن الأسرى فى أول معركة، «عفا الله عنك، لما أذنت لهم ... ».

فالمثل البشرية العالية امتحنهـا الله فى مواقف متنوعة، ثم لقنها وسائل الإصلاح، وأدبها أدبـاً عاليًا ، ثم عفا عنهـا وأفسح لهـا باب الرحمة..

والمطلـوب من الإنسان إذا ابتلى بـالخطأ، أن يعمل على إصـلاح نفسه وتقـويمها مستعينا بـوصايـا القرآن، ونصائح الـرسول، ثم يتوب توبة صادقة.

ولكن الذنوب ليست على درجـة واحدة، بل هـى تتدرج من أعلى إلى أسفل.. فـالكبائر كـالقتل وشرب الخمـر والـزنا والسرقـة وأكل أموال الناس بـالباطل والربا والنميمة.. تمثـل قمة الآثام.. ثم يأتى بعـد ذلك اللمم أى الذنـوب العــارضة كـاللغـو فى القول والكـذب الأبيض (كما يقـولـون)، وقـد وعـد الله النـاس بأنـه سيغفـر لهم الـذنوب الصغيرة إذا تجنبـوا الذنـوب الكبـار، «إن تجتنبوا كبـائر ما تنهـون عنه نكفر عنكم سيئـاتكم وندخلكم مدخــلا كريما» ثم قــال « ولله مـا فى السمـوات والأرض ، ليجـزى الـذين أسـاءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى، الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللم، إن ربك واسع المغفـرة»، ثم أضفى الرحمة على الجميع لمن تاب وآمن وأصلح.

ثم إن الـذنوب صنفـان، ذنـوب يقترفهـا الإنسان فى حق ربـه، وذنوب يقترفها فى حق الناس.. ولكل منهما شروط فى التوبة.

الذنـوب التى يقترفهـا الإنسان فى حق ربـه شروط التوبـة فيها ثلاثة: ترك المعصية والإقلاع عنهـا ثم الندم على ما ارتكبه منها، ثم العزم على عدم العودة إليها.. هـذه الشروط الثلاثة ضرورية لقبول التوبـة من الذنـوب التى ترتكب فى حق الله، من هـذه الذنـوب ترك الصلاة، أو الحج للمقتدر، أو الصوم.. أمـا الذنوب التى تقع فى حق الناس، فلها أربعة شروط حتى تتحقق التـوبة، الشروط الثلاثة التى ذكـرنـاهـا.. أمـا الشرط الـرابع فهـو أن يبرأ من حق صـاحبهـا.. فلو سرق مالا فعليه أن يتوب إلى الله تعالى ثم يرد المال إلى صاحبه، وإن كانت غيبة استغفر منها ثم استحل المجنى عليه..

ولكن ماذا فى العودة إلى ارتكاب الذنـوب بعد التوبة والاستغفار والندم؟؟؟

حديث رسـول الله يبشرنا بأن الذنوب مهما بلغ كمهـا أو كيفها يمكن أن تطوقهـا التوبة ، يقول الـرسول راويا عن ربـه (لو بلغت ذنوب عبدى عنان السماء ثم استغفرنى غفرت له).

إلا أن هناك فـرقا بين مذنـب مصر على مواصلة الـذنوب، وبين مذنب يرتكب الإثم ثم يتوب ثم يعود ثم يتوب دون إصرار..

لم يترك هذا الموضوع دون إيضاح، فقد تنـاولت الآيات القرآنية كلتا الحالتين..

يقـول الله تعالى: «والـذين إذا فعلوا فـاحشة أو ظلمـوا أنفسهم ذكـروا الله فـاستغفـروا لـذنـوبهم، ومن يغفـر الـذنـوب إلا الله، ولم يصروا على مـا فعلوا وهم يعلمـون». فـالمغفـرة مقترنة بعدم الإصرار على ارتكاب الذنب..

وتوضـح آية أخـرى هذا المعنى، «والذين يعملون السـوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، فأولئك يتوب الله عليهم...».

والجهالة هنا تعنى عدم الإصرار والغفلة..

كتارك الصلاة الذى يصر على تركها، والزانى الذى يصر على الزنا، والقاتل وشارب الخمر ولاعب الميسر الذى يصر على جرائمه يقفل على نفسه أبواب الرحمة..

التشجيع على التوبة :

لقد شجع الله الإنسان على المبادرة بالتوبة، ويسر له الوسائل، واستحثه على عدم اليأس والقنوط « ولا تيأسوا من روح الله...» وقال « ولا تقنطوا من رحمة الله...». بل إنه أعلم الإنسان أنه سيخطىء فى حياته مهما كان تحوطه، ومهما كانت شخصيته.. يقول الحديث القدسى عن الله تعالى (لو لم تخطئوا لأتيت بقوم يخطئون فيستغفرون فأغفر لهم)، ويقول الحديث النبوى (كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون».

بل إن الله تعالى لقن الإنسان بعض العبارات التى يقولها ليفتح له أبواب المغفرة والرحمة « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين»..ويلقن نبيه عبارات لتعينه على التوبة، «وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين».

ومن وسائل التشجيع على التوبة والعمل الصالح أن الله جعل الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها، «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون». وزيادة فى التشجيع فإن الرسول فرق بين الإقدام على الحسنات والشروع فى السيئات، فشجع على الأولى، وخفف من عقوبة الثانية.

قال فى حديث متفق عليه: (إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك: فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنة كاملة، وإن هم بها وفعلها كتبها الله عشر حسنات إلى

سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة) .

ومن التشبيهات الرائعة الذى ذكرها رسول الله والتى يصور لنا من خلالها مدى حرص الله على توبة عباده، هذه القصة التى رواها لنا الرسول (كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا، قال من أعلم أهل الأرض، فدل على راهب ، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة؟ فقال:لا؟ فقتله فكمل به مائة. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس هل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، لأن بها أناسا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرا قط، فأتاهم ملك على صورة آدمى فجعلوه بينهم ـ أى حكما ـ فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد، فقبضته ملائكة الرحمة.

ويحدثنا الرسول عن ربه (يقول الله عز وجل، من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد، ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة سيئة مثلها أو أغفر. ومن تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا، ومن تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة، ومن لقينى بقراب الأرض خطايا لا يشرك بى شيئا لقيته بمثلها مغفرة).

ولقد أفضى رسول الله إلى معاذ بن جبل بحديث بالغ الأهمية

نذكره بنصه (يامعاذ، قال معاذ لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم صمت الرسول ونادى معاذا ثانية يا معاذ، فأجابه لبيك يا رسول الله وسعديك.. ثم ناداه للمرة الثالثة يا معاذ، فأجابه لبيك يا رسول الله وسعديك.. ثم قال الرسول: ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار . قال معاذ ، يا رسول الله أفلا أخبر بها الناس فيستبشروا . قال الرسول : إذاً يتكلوا).

وظل معاذ كاتما لحديث رسول الله ولم يبح به إلا قبل موته..

ولكن هل يعنى هذا الحديث أن من ينطق الشهادتين يجور ويظلم ويسفك الدماء ويغير على الأعراض؟؟ مستحيل أن يكون هذا مفهوم الحديث!!

ولكن مفهوم الحديث أن جميع الجرائم باستثناء الشرك بالله لا يقفل باب الرحمة أمام مرتكبيها.. لأن اقفال باب الرحمة قد يدعو الإنسان للمزيد من الجرائم والمزيد من الآثام.. وهذا يشكل خطرا على أمن الناس وسلامتهم.. فالقاتل الذى يتوب ثم نسد أمامه باب الرحمة قد يكرر جرمه دون مبالاة.. وكذلك شأن السارق والزانى..

إن فتح باب الرحمة أمام الجناة فيه رحمة بالجانى وفيه رحمة بالمجتمع ..

مصادر الذنوب :

لقد عرف الله الإنسان بأعدائه الذين يدفعون به إلى المعصية وارتكاب الذنوب .. وكان فى طليعة هؤلاء الأعداء نفس الإنسان، ثم الشيطان ثم أعداؤه وأصدقاؤه من بنى آدم. فقال عن العدو الأول «إن النفس لأمارة السوء» .. فهى التى تدفعه للإجرام والبغى والكفر والجحود .. ولذلك حذره منها، ودعاه تطهيرها وتزكيتها

«ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها» . ثم وعد النفس المزكاة بالمستقبل الزاهر المنير «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى» . وحتى يتم الانتصار على النفس وتزكيتها لابد من إضافة خير جديد كل يوم، وتجنب شر، وقد وضح الله لنا أسباب الخير، كما بين لنا مواطن الشر، كل الاخلاقيات من صدق وامانة ووفاء وكرم ونجدة، كلها من اسباب الخير، وعدم العدوان على نفس الغير وماله تزكية وتطهيرا للنفس..

فالنفس تحتاج إلى جهاد ومعاناة حتى تزكو وتطهر، ولقد لفت الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمنين إلى مدى أهمية جهاد النفس بعد عودته من معركة حربية مجهدا : قال لأصحابه (عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر فظن أصحابه أنه يعد لمعركة حربية أكبر فسألوه في لهفة : وما هو الجهاد الأكبر يا رسول الله قال: جهاد النفس).

ولقد وصف الله النفس بأنها كثيرة الأمر بالمنكر قال : «إن النفس لأمارة بالسوء». والمطلوب من الانسان أن يقابل هذه الأوامر الملحة بالسوء إلى الاستجابة لأوامر الخير والمعروف..

ولقد أبدع عمر بن الخطاب وهو يصف دور النفس فى الإغراء، كما رسم لنا اسلوب المقاومة، قال عمر بن الخطاب (اقعدوا هذه النفوس عن شهواتها فإنها نزاعة إلى شر غاية، إن هذا الحق ثقيل ولكنه مرئ، وإن الباطل خفيف ولكنه وبيء، ورب نظرة زرعت شهوة، وشهوة ساعة أورثت حزنا ثقيلا).

والعدو الثانى الشيطان، والشيطان مخلوق خفى «إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم »، وقد ذكرت لنا أوصافه، وصفاته، وتاريخه الذى بدأ مع بداية خلق الإنسان، كلها موضحة فى

القـرآن.. فتاريخه يبـدأ بعصيـان الله وإعلان الحرب على الإنسـان «وإذ قلنا للملائكة أسجـدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمـر ربه، أفتتخذونـه وذريته أوليـاء من دونى وهم لكم عدو، بئس للظالمين بدلا».

وقد أعلن الشيطـان معركته ضـد الإنسان اخـذا بكل الاسباب، مستغلا جوانب الضعف فيه، وقـد ذكر الله فى كثير من آيات القرآن أساليب الشيطـان ومداخلـه، «.. لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيـديهم ومن خلفهم وعـن أيمانهم وعن شمائلهم، ولا تجد اكثرهم شاكرين».

وقد كشف الـرسول عليـه السلام عن مـدى تغلغل الشيطان في حيـاة الإنسـان، وبين وسيلـة طـرده بهذا التشبيـه الـدقيق (إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم، فضيقـوا مجاريه)، والدم يقوم بتغذية الإنسـان وينتشر في كل أجزاء الجسم، كذلك الشيطان فإنـه ينتشر فى كل أرجـاء النفس، يحرض ، ويغرى ، ويـوسـوس، ويثير الفتن والقـلاقل، ويشـارك فى كل الآثام، يشـارك القـاتل فى القتل، والـزانى فى زناه، وشـارب الخمر فى كئـوسه، «إنما يأمـركم بالسوء والفحشاء ..»، الشيطان يعـدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء»، إنما يـريد الشيطـان أن يـوقع بينكم العـداوة والبغضاء فى الخمـر والميسر»..

ولقد بين الله للنـاس وسائل الجهـاد ضد الشيطـان، وكان اولها اعـلان الحرب عليه «الشيطـان لكم عـدو فـاتخذوه عدوا» ثم ذكـر الانسـان بأن عداوة الشيطان بـدأت مع خلق الأب الأول آدم، أنـه حاول فتنـة هذا الأب: «يـا بنى آدم لايفتننكم الشيطـان كما أخرج أبويكم من الجنـة»، ولأن الشيطان قوى وضـار فى عداوته أوصـانا الله بأن نستعين عليه بقدرة الله مع المجاهدة الدائمة.. «فإما ينزغنك

من الشيطان نزغ ، فاستعذ بالله.. » .

بل علمنا كيفية الاستعاذة بالله من الشيطان : «قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، ..» «قل أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق، ..».

ولفت نظرنا بشدة إلى أن اغفال جانب الله، والتهاون فى مداومة ذكره، يعنى السقوط فى قبضة الشيطان، «ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين».

وكانت المفاضلة فى منتهى الوضوح، فإما أن يعبد الشيطان، وإما أن يعبد الله، «ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين، وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم».

ولقد ضمن الله للإنسان أن كيد الشيطان وجبروته لا يمكن أن ينال من الإنسان الصالح.. «وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله..» وقال «إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون».

العدو الثالث ، الانسان :

الأخوة بين الناس باعتبارهم ينتمون إلى أب واحد وأم واحدة أثبتها الله فى كتابه، «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن اكرمكم عند الله أتقاكم»، وهذه الأخوة ضرورة للتعايش والتعاون لصالح الإنسانية، بغض النظر عن الانتماء العقائدى، لكن الله تعالى آثر المؤمنين بأخوة خاصة تستمد قوتها من الله تعالى «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخوانا..» «والمؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض..».

ولكن الإنسان تأبى على الأخوة العامة، فأغار على أخيه قتلا وظلما وجورا وعدوانا، وحتى الطائفة المؤمنة لم يسلم الأمر من

وقـوع تظـالم فيما بينهم، «وإن طـائفتـان من المؤمنين اقتتلـوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله..».

ومـا من ظلم أو قتل أو سرقـة أو زنا إلا وفيـه طـرفان، طـرف معتد وطرف معتدى عليه.

ومهما فعل الإنسـان من خير، ومهما بـذل من مال، وأيـا كـان مركـزه أو سلطانه فإنـه سيتعرض لعدوان الإنسـان، حتى الأنبياء والرسل لم يسلمـوا من هذا العـدوان.. وعدوان الإنسان قـد يكون باليـد أو باللسان أو بالهمـز واللمز.. أو الغيبة والنميمـة.. وما على الإنسـان الصـالح إلا الصبر على العـدوان والتحمل مـا دام ذلك فى مقـدوره، وما دام الأمـر لا يمس دينـه ووطنه وشرفـه وحقه، فقـد وجب عليه دفع العدوان بكل وسيلة.

يقول رسـول الله (من مات دون عرضـه فهو شهيـد، ومن مات دون ماله فهو شهيد، ومن مـات دون حقه فهو شهيد)، ولقد حذر الله ورسوله من عدوان الناس وبغيهم..

قال رسول الله (إذا التقى المسلمان بسيفهما فـالقاتل والمقتول فى النار، فلما سئل وما ذنب المقتول، قال لأنه كان حريصا على قتل صاحبه)

وقال عن الزنـاة والقتلة (لايزنى الزانى حين يـزنى وهو مؤمن، ولا يقتل النفس حين يقتلهـا وهـو مؤمن، ولا يسرق السـارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن).

وعداوةالإنسـان لأخيه الإنسـان لا تقتصر على حياتنـا القائمـة ولكنها قـد تمتد إلى الحيـاة الثانية.. فقـد صور لنـا القرآن الصراع الـذى سينشب بين أصـدقـاء السـوء والمتـآمـرين وأحـلاف الشر، «الأخـلاء يـومئـذ بعضهم لبعض عـدو إلا المتقين » ، كما بشر

المتعاونين والمدافعين عن الحق والخير بأنهم سيجتمعون مع بعض فى جنة ممتعة «ونزعنا ما فى صدورهم من غل، إخوانا على سرر متقابلين».

هذه العداوات الثلاث، عداوة النفس، وعداوة الشيطان، وعداوة الإنسان، تعمل جاهدة على إفساد حياة الناس دنيا وآخرة.. والإنسان العظيم هو الذى يسجل انتصارا فى كل معركة تعرض له.. وحتى إذا أصيب بهزيمة فلا ييأس ولا يقنط، ولكن يكر ثانية وثالثة إلى أن يحقق النصر الأخير.

لمتسائل أن يقول.. إن الله وصف نفسه بالشدة كما وصف نفسه بالرحمة، وخلق النار كما خلق الجنة.. ووصف الرسول بأنه نذير كما وصفه بأنه بشير.. فلم نزف للناس بشريات الجنة، وندع نذر العذاب؟؟

الجواب على هذا تكفل به القرآن الكريم «إن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم، وإن ربك لشديد العقاب» .

وأوصى الإنسان بأن يسأل الله الرحمة ويعوذ من العذاب، «ادعوه خوفا وطمعا، إن رحمة الله قريب من المحسنين» .

ونختم حديثنا ببشرى الرحمة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله ليبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها) .

٦

هـل خلقنـا الله أم الطبيعـــة ؟

إلى الذين ينكرون الله....

وإلى الذين ينكرون الرسالات والرسل...

وإلى الذين ينكرون اليوم الآخر...

إليهم جميعا هذه المواجهة العلمية...

لقد تجرأ نيوتن على الله الذى منحه قدرا من العلم فقال (إنه لاوجود لإله يحكم النجوم).

وتجرأ هيوم على الإلـــه فأنكـره وتحداه (لقــد رأينـا الساعة وهى تصنع فى المصانع، ولكننا لم نرى الكون وهو يصنع، فكيف نسلم أن له صانعا).

وتجرأ لينين وأعلن فى خطـاب جماهيرى (إننـا لانـؤمن بإلــه، ونحن نعـرف كـل المعـرفــة أن أربـاب الكنيســة والاقطاعيين، والبـورجوازيين لايخاطبـوننا بـاسم الإله إلا إستغلالا، ومحافظة على مصالحهم).

وشـارك فى هـذا الجحود والإنكـار عشرات من رجـال العلم والفـلاسفة كفـرويـد، وداروين، وهكسلى... وتبعهم كثير ممن اختلط عليهم الفهم... وللأسف تتلمـذ على أيديهم ببغاوات شرقيـة قامت بترديـد أصداء كفـرهم وجحودهم. وكان شرقنا فى غلبة من أمره فهو مكتوف الأيدى بالسلاح، معتقل الفكر تحت وطـاة الولايـة الفكريـة للسيد الأبيض، حتى إذا أدركته اليقظة الكبرى رفـس الإستعمار بقدمه، ثم بدأ يطعنه بقلمه. فكان الطعان بكتاب.

٦

هـل خلقنـا الله أم الطبيعـة .. ؟



وصاحب هذا الكتاب (الإسلام يتحدى) رجل من باكستان هو وحيد الدين خان، والذى يسر لنا أمره وحققه رجل من مصر وهو الدكتور عبد الصبور شاهين.. وقد شاركا بجهد رائع فى معركة الطعان بالقلم. وياليت داروين، ولينين كانا على قيد الحياة ليشاهدا معركة التحدى وقد تصدى لها علماؤنا بكل بسالة وبطولة.. وكاتبنا يحاول أن يدفع بالحجج العلمية والبراهين، وأقوال العلماء والفلاسفة المعاصرين، تخاريف زعماء الإلحاد والمروق، الذين أضلوا زماننا، وأفسدوا معتقدات شبابنا.. فصادر حججهم بعلم النفس، وبعلم الطبيعة، وبعلم الفلك.. حتى أجهض كل دعاواهم..

فمثلا : هو يرد على عبّاد الطبيعة الذين يردون إليها الأمر فى

كل شيء، ويرون أن الحوادث تحدث طبقا لقانون الطبيعة، وبالتالى لاحاجة لأن نفترض لهذه الحوادث إلها!!. إنه يرد عليهم بمثل بسيط عن (البيضة والكتكوت) قال: إن الكتكوت يعيش داخل قشرة البيضة القوية، ويخرج منها بعد ماتتكسر، وكان الإنسان القديم يؤمن بفطرته بأن الله أخرجه، ولكننا شاهدنا اليوم بالمنظار أنه فى اليوم الحادى والعشرين يظهر قرن صغير على منقار الكتكوت، يستعمله فى تكسير البيضة، ثم يزول هذا القرن بعد بضعة أيام من خروجه من البيضة..

ثم إن هذه المشاهدة أبطلت مايقول: إن المعارضين يقولون الفكرة القديمة القائلة بأن الله يخرج الكتكوت من البيضة، وإن خروج الكتكوت من البيضة، جاء نتيجة لتفاعل استمر واحدا وعشرين يوما.. ويرد عليهم بقوله: إن السبب الحقيقى سوف ينجلى لأعيننا حين نبحث عن العلة التى جاءت بهذا القرن ؟ العلة التى كانت على معرفة كاملة بأن الكتكوت سوف يحتاج لهذا القرن ليخرج من البيضة!!.

ثم يتعقب الذين ينادون بضرورة الدين، ولكنهم يتصورون الدين بدون إله، ويستشهدون بالبوذية التى تؤمن بالدين ولكنها لاتؤمن بالله.. ويضع لهؤلاء تصورهم فيقول: إن الدين الذى يصلح لهذا العصر يلزم أن يكون مثل البوذية، فإن إله العصر هو (مجتمعه وأهدافه السياسية)، ورسول هذا الإله هو البرلمان الذى يوجه الشعب، ومعابد هذا الإله العصرى ليست المساجد أو الكنائس، وإنما هى المصانع الكبيرة والسدود العظيمة.

ويرد الرجل على هؤلاء المتخبطين بقوله: أن أكبر دليل على وجود الله هو مخلوقه، هذا الذى نجده أمامنا، وأوثق ماعلمناه من حقائق الطبيعة يدعونا إلى الإيمان بأنه لاريب أن لهذه الدنيا إلها

واحدا، ونحن لانستطيع أن نفهم أنفسنـا وأن نفسرها مجردين من الإيمان بالله.. (اللهخالق كل شىء، وهو على كل شىء قدير)..

سأخلق إنسانا !!

وسخـر عـالمنـا من (هكسلى) وهـو أحـد علماء البيـولـوجيـا المشهـوريـن حين قـال: (ائتـونى بـالهواء، وبـالماء وبـالأجـزاء الكيماويـة، وبالـوقت وسخلق إنسـانـا)، فيرد عليـه ببساطـة (إن هكسلى نسى أو تجاهل، أنـه بتقريـره احتياجـه إلى الماء والأصول المادية ينفى زعمه من تلقاء نفسه)..

وحتى يقتل افتراءات هؤلاء العلماء يـدفع فى وجوههم بعلماء من مستواهم العلمى، فيقـرع الحجة بالحجة فهو ينقـل إلينا رأى عالم الطبيعة الأمـريكى (جورج دايرل ديفيس) : (لو كـان يمكن للكون أن يخلق نفسـه فـان معنى ذلك أنـه يتمتع بأوصـاف الخالق، وفى هذه الحالـة سنضطر لنـؤمن بأن الكـون هو الإله، وهكـذا ننتهى للتسليم بوجود الإله، ولكن إلهنا هـذا سوف يكون عجيبا وماديا فى آن واحد!! إننى أفضل أن نؤمن بـذلك الإله الذى خلق العالم المادى وهو ليس بجـزء من هذا الكون، بل هو حـاكمه، ومدبره، ومـديره، بدلا من أن أتبنى هذه الخزعبلات)..

قضـية الفضـاء :

ثم يسبح بنا الكاتب فى أجـواء الفضاء ليكشف لنا بعض أسراره لنتأمل عظمـة الله وقدرته.. وأن هـذا الكون يستحيل أن يكـون من خلق الطبيعة أو انه تشكل بالصدفة..

يقول: إن علم الفلك يدلنـا أن عدد نجوم السماء مثل عدد ذرات الرمال الموجودة على سواحل البحـار فى الدنيا كلها، وأن القليل من هـذه النجـوم يصغر عن حجم الأرض، أمـا معظمهـا فيكبر الأرض ملايين المرات.. وحاول الـرجل أن يأخذنا فى رحلة فضـائية ويدور

بنـا حول الكون فجمعنا فى طائرة خيالية تسير بسرعة ١٨٦,٠٠٠ ميل / ثـانية أى ٦٦٩ مليـونـا و٦٠٠ألف ميل فى الساعة.. هـذه الطائرة سوف تدور حول الكون فى ألف مليون سنة..

ويقـول : والعجيب أن هذا الكـون يتسع كل لحظـة. وأنه بعـد ١٣٠٠ مليون سنة سوف تتضاعف المسافات الكونية!!

ويقول : أن هـذا الكون كنا نجهـل عنه الكثير.. فمثلا كنـا نرى بالعين المجردة خمسة آلاف نجم، أما الآن نرى بليونين من النجوم باستعمال التليسكوب العادى.. فماذا نرى منه فى غدنا ؟؟

وينقلنـا من العالم الكبير جـدا إلى عالم صغير جـدا وهو عـالم الذرة ثم يفـاجئنا بالأرقام بأن عـالم الذرة بالغ الضخامـة. ويقول أن الذرة لا يمكن أن نراها بالعين المجردة. بل أن المنظار الذى يكبر ملايين المرات يعجـز عن رؤيتها.. ومـع هذا فقد ثبـت أنها تحتوى على مجموعـة من الإلكترونات. وهذه الإلكترونـات لا تتصل بعضها ببعض، وإنها تدور حـول البروتون، وأن كليهما يدور حول مـركز الذرة بغير علم. فلماذا لانأخذ منـه دليلا على وجود منظم قائم على هذا التنظيم.. إنه الله.

الإيمـان بالآخـرة :

ويقول هذا العالم الكبير فى أحد أبحـاثه التى تضمنها كتابه: إن من أهم الحقـائق التى يدعـونـا الدين لـلإيمان بها: فكرة الأخـرة، المراد بها أن هناك عالما آخر غير عالمنا الحاضر، وسوف نعيش ذلك العالم خالدين.

وأن عالمنـا هذا هـو مكان للبلاء والاختبـار، وجد فيـه الإنسان لأجل معلوم.. وأن الله سوف ينهى هذا العـالم حين يريد لبناء عالم الأخـرة وأن النـاس سـوف يبعثـون مـرة أخـرى وسـوف تعرض أعمالهم خيرا أو شرا على محكمـة الله، والذى سيجـزى كل إنسـان بما عمل..

يبدأ الأستاذ مناقشته لقضية النهاية المحتومة للأرض، بضرب الأمثلة لنا بالنهايات المصغرة التى تجرى أمامنا كل يوم مثل الزلازل والبراكين.. والتى تأتى على معظم الحياة القائمة من حولها، بعد أن تحدث أصواتا مفزعة، ورجات قوية، ثم ترسل لهبا يكاد يخطف الأبصار.. وقد استحال على الإنسان المعاصر بكل إمكانياته العلمية والفنية أن يوقف هذه الزلازل، أول حتى يخفف منها.. وكل مافعله هو مداواة بعض آثارها، والتخفيف من تخريبها..

ويذكر : لنا أمثلة من الزلازل والبراكين الرهيبة التى أتت على الأخضر واليابس، كزلزال شنن الصينى الذى وقع عام ١٥٥٦ وراح ضحيته ثمانية ملايين نسمة، وزلزال لشبونة الذى هز ربع أوربا، وقتل ثلاثين ألفا من البشر، وزلزال آسام بالهند والذى وقع منذ قرن تقريبا، وقد تمكن من تغيير مجرى أكبر نهر بالهند وهو (برهام بوثرا).

ويعلق المؤلف على هذه الظواهر بقوله: إن هذه الزلازل تقرع أبواب المدن فجأة، دون سابق إنذار، وأن الإنسان لايستطيع أن يتنبأ بمكان الزلزال، ولا بموعد وقوعه، والزلازل تنبىء عن القيامة الكبرى التى سوف تفاجئنا ذات يوم على غرة منا.. إن هذه الزلازل دليل ناطق بأن خالق الأرض قادر على تدميرها كما يشاء..

ويسوق لنا حكمة وردت على لسان العالم الجغراف (جورج جاموف) يقول: أن هناك جهنم طبيعية تلتهب تحت بحارنا الزرقاء، وتحت مدننا الحضارية المكتظة بالسكان، وبكلمة أخرى نحن واقفون على لغم كبير، ومن الممكن أن ينفجر فى أى وقت ليدمر النظام الأرضى بأكمله.

وسبحان القائل: «إذا زلزلت الأرض زلزالها، وأخرجت الأرض

أثقالها، وقال الإنسان مالها، يومئذ تحدث أخبارها، بأن ربك أوحى لها..»، وقوله تعالى «إذا رجت الأرض رجا، وبست الجبال بسا...».

وينتقل الكاتب من ظواهر الأرض إلى ظواهر السماء فيقول: «إن الكون فضاء لاحدود له، تدور فيه نيران هائلة لاحصر لها، وهذا الدوران يمكن أن يتحول فى أى يوم إلى صدام عظيم لايمكن تصوره، وفى تلك اللحظة الرهيبة يكون مافى الكون أشبه بالآلاف من القاذفات النفاثة المليئة بالقنابل النووية فى طريقها لصدام رهيب.. إن اصطدام الأجرام السماوية ليس بغريب مطلقا، بل الغريب هو عدم وقوع هذا الإصطدام».

ويذكر الكاتب بعض الاحصائيات المذهلة من عالمنا العلوى، ويقول: يتألف الكون من خمسمائة مليون من مجاميع النجوم مضروبا هذا العدد فى ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ من الملايين وفى كل مجموعة منها يوجد مائة مليار من النجوم، ويقدرون ـ أى علماء الفلك ـ أن أقرب مجموعة من النجوم، وهى التى نراها فى الليل كخيوط بيضاء دقيقة تضم حيزا مداه مائة ألف سنة ضوئية.. هذا الكون محكوم بدقة متناهية يقدرها الحكيم الخبير.. والكرة الأرضية لاتزن شيئا فى هذا الكون.. فإذا أراد الله فناءها فمن يعصمها منه، وهو خالق هذا الكون العظيم..

ضرورة الحياة الآخرة :

وبأسلوب سهل قوى يتصدى وحيد الدين لفلسفة نيتشه عن الحياة حين قال (الحياة غدو.. ورواح) وأنها تمتلىء وتخلو كالساعة.. فيرد عليه بإيجاز: (إن الحياة الآخرة ذات هدف عظيم وهو المجازاة على أعمال الدنيا خيرا أو شرا)، ثم يتساءل ولكن كيف تحفظ أعمال الإنسان التى سيجزى عليها؟؟

ويجيب على هذا السؤال بقوله: للإنســـان ثلاثة أبعاد يعرف من خــلالها هى: نيته، وقــولــه، وعمله.. وهــذه الأبعــاد الثلاثــة تسجل بأكملها، فكل حرف يخرج من لساننــا، وكل عمل يصدر عن عضو من أعضائنــا يسجل فى الأثير الفضائى، ويمكن عـرضه فى أى وقت من الأوقات بكل تفاصيله..

ويقول: ولقد أثبتت التجارب العلمية، أن جميع أفكارنا تحفظ فى شكلها الكامل، ولسنا قــادرين على محوها، وأثبتت هذه التجارب أن الشخصية الإنســانية لاتنحصر فى الشعور، بل هناك أجـزاء أخرى وراء الشخصية الإنسانية تبقى وراء الشعور، وهذه الأجزاء تشكل جــانبــا كبيرا من شخصيتنــا، ويشبه الشعـور والـلاشعـور بجبل الجليد لايظهـر منـه فـــوق سطح الماء إلا تسعــة وتبقى الأجـزاء الثمانية الباقية مستكنة تحت الماء..

ويؤكد عالمنا إستنادا إلى أداء معظم علماء النفس أن كل مايخطر على بال الإنســان من خير أو شر ينقش فى صفحــة اللاشعــور فلا يزول إلى الأبد ولايؤثر فيــه تغير الزمان، وهذا يحدث على الرغم من الإرادة الإنسانية..

ثم يقول : إن هذا الواقع يؤكـد بكل صراحة، إمكان وجود سجل كامل لأعمال الإنسان فى حيــازته عندما يبدأ حياتــه الأخرى: «ولقد خلقنا الإنســان ونعلم ماتــوسوس بــه نفسه، ونحن أقــرب إليه من حبل الوريد».

صدق الله العظيم ..

هل من حاجة للآخرة ؟؟

يروى لنــا المؤلف قــولين متناقضين للأستــاذ (وينود ريــد) ثم ينــاقشه وينــاقش بهدوئه المعـروف: يقول وينــود (إنــه لأمر هــام يدفعنا إلى التفكير فيما إذا كــانت لنا علاقة شخصيــة مع الإله، هل

هناك عـالم غير عالمنـا هذا، وهل سـوف نلقى جزاء عملنـا فى ذلك العالم؟ إن هذا السؤال تتعلق به مصـالحنا الكثيرة، فحياتنا الراهنة قصـيرة جدا، أفراحها عادية موقـوتة، ويفاجئنا الموت، ولو استطعنا الإهتداء إلى طريقة خاصة تجعل أفـراحنا دائمة وأبدية، فلن يرفض العمل به أحد غير البله والمجانين)

ولـلأسف فإن الكـاتب يعـود ليتنكـر لما يقولـه حين يقـول فى سخرية: «إن هذه العقيـدة ـ أى عقيدة الآخرة ـ كانـت معقولة جدا حين كنا لانبحث جوانبها بعمق وجـد، ولكن بعد هذا البحث اتضح لنا أن أمـرها سخيف، ويمكن إثبـات سخافتها بسهـولة، فـالفلاح المحـروم العقل، الجاهل لا يتحمل مسـؤوليـة خطـايـاه وسيـدخل الجنة، ولكن العباقـرة مثل فرويد وروسو سـوف يحترقون فى نار جهنم، يرد وحيـد الدين كاتبنـا على هذا الخلط فيقول: «إن كـاتبنا لم يرق لـه أن يطالب جوته وروسـو أن يسلكا مسلك الحق، وإنما طالب الحق بالتغير، ولما لم يطع الحق راح ينكره).

ثم يتعقبـه بالحجج والأمثلـة والحكم، فيقول أنـه لا يوجـد على سطح الأرض من يفكر فى الغد غير الإنسـان، لأن حياة الحيوان هـى (حياة اليـوم) وهذا مـايميز الإنسـان عن الحيـوان .. لأن الإنسان يتطلع إلى المزيـد من السعـادة والخير مع دوام هـذه السعـادة، ثم يقول: ولقد حاول الفلاسفة ورجال الإقتصاد والثوريون أن يقنعوا الإنسـان بأنـه مع التقـدم التكنـولـوجى سـوف يعيش فى غمـرة السعادة، وبالتالى سوف يغرض عن التفكير فى السعادة الأخروية..

ثم يرد عليهم بمثلين أحـدهما يأخذه من واقع الماركسيـة اليوم فيقـول عنهـا: إن النظام التكنـولـوجى لم يعط الإنسـان أكثـر من مظـاهر مـاديـة لأنـه لايملك القيم الـروحية، حتى يمنـح لأتباعـه السعادة والطمأنينـة القلبية وواقع الماركسيـة يؤكـد هذا، ثم يثنى

باعتراف صريح (البرتراند راسل) قاله فى مرحلة من مراحل يأسه (إن حيوانات عالمنا يغمرها السرور والفرح، على حين كان الناس أجدر من الحيوانات بهذه السعادة، ولكنهم محرومون من نعمتها فى عالمنا الحديث).

وينتقل بنا الكاتب إلى مفهوم جديد يؤكد به الآخرة ليشهد الناس مصائرهم، ويجزون عما قدموه من خير أو شر، ويبدأ كلامه بتساؤل هل قامت مسرحية العالم كلها لتنتهى إلى كارثة أليمة، إن فطرتنا تقول لا، فدواعى العدالة والإنصاف فى الضمير الإنسانى تقتضى عدم حدوث هذا الإمكان، لابد من يوم يميز فيه بين الحق والباطل، ولابد للظالم والمظلوم أن يجنيا ثمارهما..

ثم يتساءل بانفعال: إذا لم تكن هناك قيامة، فمن ذا الذى سوف يكسر رؤوس هؤلاء الطواغيت ثم يتكلم عن أحداث وقعت فى الهند ويعلق عليها بأسلوب يملؤه الأسى والحزن يقول: لقد رفع القوم شعارات العلمانية والجمهورية واللاعنف، وفى نفس الوقت ارتكبوا أبشع ألوان الدكتاتورية وأسوأ صور العنف، وكل هذه الجرائم التى تأسى لحدوثها السباع المفترسة، والذئاب الكاسرة قد جرت فى عهد زعيم أطلق عليه لفظ (معلم الإنسانية ورسول السلام): الزعيم المقصود هو جواهر لال نهرو وينتهى بنا الكاتب إلى القول بأن جميع الأبحاث النفسية والروحية والتجريبية قد إنتهت إلى أنه لايعقل وجود حياة أولى دون وجود الحياة الآخرة، بل لقد آمن بهذه الآخرة كثير من العلماء والفلاسفة الذين لايؤمنون بالدين..

وذكر لنا على سبيل المثال ماكتبه البروفيسور دوكاس أستاذ الفلسفة بجامعة براون.. قال دوكاس (... ويتضح لنا أن عقيدة بقاء الحياة بعد الموت التى يؤمن بها الكثير كعقيدة دينية - ليس

من الممكن أن تكـون واقعا فحسب، وإنما لعلهـا هى الوحيـدة، من عقـائد الدين الكثيرة التى يمكن إتباعهـا بالـدليل التجريبى ولـو صح هـذا فمن الممكن أيضـا أن نجـد معلـومـات قطعيـة فى هـذا الموضوع..

ثم يختم كاتبنا حديثه بكلمة جامعـة مانعة: (إننا لو أعطينا هذه المسألة الخطيرة شيئا من تفكيرنا، فسـوف نجد قلوبنا تصرخ: «إن الساعة آتية لاريب فيها..».





على طـريق التحدى، نلتقــى فى هذه الحلقــة مع الأستاذ وحيـد الدين خــان مؤلف كتــاب «الإسلام يتحـدى» حيث يجيبنــا عن مجموعــة من الأسئلــة الكبيرة بأسلوبــه العلمى الرائع.. إنــه سيجيبنا عن هذه الأسئلة :

كيف نثبت نبوة محمد ؟؟

وهل القرآن من عند الله ؟؟





كيف نثبت نبوة محمد .. ؟

يجيبنا الأستاذ وحيد الدين خان بقوله :

لابد من وجود مقياسين لاختبار الأنبياء :

أولا : أن يكون رجلا مثاليا بصورة غير عادية، فإن الذى يصطفى ليكون كليم الله، وليكشف للإنسان برامج الحياة وسرها لابد أن يكون أسمى شخصية فى النوع الإنسانى، فإن كانت حياته الذاتية متصفة بهذه الصفات فهى أكبر دليل على مايقول، إذ لو كانت دعواه باطلة لما كان ممكنا أن تتجلى هذه الحقيقة الكبرى فى حياته الذاتية.

ثانيا : أن يكون كلامه ورسالته مملوءين بجوانب يستحيل حصولها للإنسان العادى.

بهذين المقياسين يتتبع المؤلف سيرة محمد فى الناس قبل البعثة

وبعدها.. فيضرب بعض الأمثال.

فقبل الرسالـة كان يدعى بالصادق الأمين، وقد هتفـوا به عندما دخل الكعبـة بعـد أن اشتـد بهم الخلاف حـول من يضع الحجـر الأسود، وقالوا: «هذا الأمين رضيناه».

ووقف ذات يـوم يخطب فى قـومــه، وكـان ذلك فى أوائل عهـده بالرســالة، فقال لهم: «يابطون قـريش، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقى؟؟، فارتفعت الأصوات، وتجاوب صداها مع جبال الصفا: نعم ماجربنا عليك كذبا».

ولما أراد ملك الروم أن يتحقق من نبـوة محمد سأل أبـا سفيان «قبل إسلامه»:

هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

قال أبو سفيان : لا..

فقال هرقل: إذا كان لايكذب على الناس فهل يكذب على الله ؟!

ومن أروع أمثلـة الـوفاء بـالعهـد والأمانـة، أنـه أوصى على بن أبى طالب ـ فى الليلة التى خرج مهاجرا إلى المدينة والقوم يتآمرون على قتله ـ أوصى برد كل الأمانات التى كانت عنده إلى أصحابها.

ويسـجل الكاتب ماقاله الدكتور ليتز عن أمانة وصدق الرسول : «إننى لأجرؤ بكل أدب أن أقـول: إن الله ـ الـذى هو مصـدر ينابيع الخير كلها ـ لو كان يوحى إلى عبـاده، فدين محمد هو دين الوحى، ولو كانت آيـات الإيثار والأمانة والإعتقاد الـراسخ القوى، ووسـائل التميز بين الخير والشر، هى الشاهد على الإلهام، فرسـالة محمد هى هذا الإلهام».

ويقلب المؤلف صفحـات أخرى عن حيـاة النبى، فيعرضهـا على عجل ثم يترك لنا استخـراج النتيجة.. إنـه يستعرض مجمـوعة من الوقـائع.. منها الإيذاء الجســدى، فقد ضرب بـالحجارة حتى دميت

قـدمـاه، وألقيت عليـه القـاذورات، وشج وجهـه الشريف وسـالت الدماء منـه فى المعارك الحربية، وسجن ثلاثة أعـوام عانى فيها مع أصحـابـه الجوع والقسـوة، فـأكل أوراق الشجـر المرة، وذكـر أن صحابيا اشتد به الجوع فـاضطر لأن يأكل قطعة من الجلد بعد أن غسلها بـالماء، وسخنها على النـار، وحتى بعد أن خـرج من الشعب (السجن) وعاش حيـاته العاديـة كان يعـانى من الجوع وقلة ذات اليد. يقـول الرسول عن نفســه (فأتت على ثلاثون بين ليلـة ويوم، ومالى وبـلال طعام يأكله ذو كبـد، إلا شىء يواريه إبط بـلال» هذا حـال طعامــه، أمـا حال لبـاسه وأثـاث بيتـه، فيروى لنا عمـر بن الخطاب أنه دخل عليه بيته فوجده مضجعا على حصير، وقد أثر فى جنبه، فقال لـه: يارسول الله ادع الله فليوسع على أمتـك، فان فارس والروم قـد وسع عليهم، وهم لا يعبـدون الله.. فقال لـه رسول الله: أوفى هذا أنت؟؟ أولئك عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا..

وكان بـوسع الرســول أن يكون من الأثـرياء، لأنـه كان تـاجرا ناجحا وأمينـا، ثم إن قومه قد عرضوا عليـه الملك والمال، فقد جاءه عتبة بـن ربيعة مفوضــا من قبل قريـش وقال له: يـا ابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمـر مالا جمعنا لك من أموال حتى تكون أكثـرنا مــالا، وإن كنت تريد بـه ملكا، ملكنـاك علينا فكان جـواب رسول الله تلاوة آيات من ســورة فصلت «حم، تنزيل من الرحمن الرحيم، كتـاب فصلت آياته قرآنا عربيـا لقوم يعلمون، بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون..».

كان هذا الإيـذاء البدنى والنفسى، والمطاردة والتجويـع والتآمر على القتل والحروب التى شنوهـا عليه لأكثـر من عشرة أعوام.. كل هذا قابله وهو فى أوج انتصـاره بالصفح والعفو فقال لهم يوم فتح مكة «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

ويختم كاتبنا حديثه عن شخص رسول الله بما قاله البروفيسور «بوسورث سميث» عن الرسول: لقد ادعى محمد لنفسه فى آخر حياته نفس ما ادعاه فى بداية رسالته، وإنى لأجدنى مدفوعا إلى الإعتقاد بأن كلا من الفلسفة العليا والمسيحية الصادقة سوف تضطران يوما ما إلى التسليم بأنه كان نبيا صادقا من عند الله..

هل القرآن من عند الله ؟؟

يسوق الكاتب العشرات من البراهين والوقائع التى تثبت أن القرآن من عند الله.. ويضع فى قائمة هذه البراهين التحدى القرآنى: «وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين».. ويعقب إلى هذا بقوله: إنه تحد تاريخى عجز كل الكتاب والأدباء والعلماء عن كتابة مثله.. ويكتفى برواية واقعتين، أولاهما عندما تحدى الشاعر «لبيد بن ربيعة» القرآن فكتب قصيدة رائعة ثم علقها على باب الكعبة، فلما رآه أحد المسلمين كتب آيات من القرآن وعلقها إلى جوار القصيدة، فلما قرأها لبيد قال: والله ماهذا بقول بشر، وأنا من المسلمين.

وبلغ من إيمان هذا الشاعر أنه لما طلب من عمر بن الخطاب أن يسمعه شعرا قرأ سورة البقرة ، وقال: ماكنت لأقول شعرا بعد أن علمنى الله سورة البقرة وآل عمران.

وذكر واقعة أخرى عندما حاول بعض الزنادقة وضع كتاب مماثل للقرآن وأغروا عبد الله بن المقفع بهذا العمل فأعلن فشله.

●●●

ويأخذ بيدنا إلى ميدان النبوءات، فيذكر لنا أمثالا عن فشل نبوءات كبار القادة والفلاسفة والمفكرين من أمثال بونابارت

وهتلر، ثم مــاركس الذى تنبأ بأن الثورة الحمـراء سوف تتحقق فى فرنسا، ومع هـذا فقد مضى أكثر من مائة عـام ولم تتحقق الثورة فى فرنسا..

ثم يذكـر الكاتب بعض النبوءات نكتفى بـذكر اثنين.. الأولى: أن القـرآن بشر الرسـول والمؤمنين بـالنصر المبين فى وقت كـانوا فيـه مستضعفين فى الأرض.. قال الله «هـو الذى أرسـل رسولـه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون».

ثم ذكر نبـوءة القرآن بانتصـار الروم على الفـرس فى وقت كان الجميع يتـوقعون عكس النتيجـة.. وينقل نبوءة أبعـد منها وقـوعا، لأن السنين الإثنى عشر الأولى من حكـومـة هـرقل كـانت تـؤذن بانتهاء الإمبراطورية الرومانية..

وسبحـان القـائل: «غلبت الـروم فى أدنى الأرض، وهـم من بعـد غلبهم سيغلبون، فى بضـع سنين».

القرآن وعلوم العصر:

يروى لنا العـالم الهندى الدكتور (عنـاية الله المشرقى)، أنه زار العالم الفلكـى الشهير الدكتـور (جيمس جونـز) الأستاذ بجـامعة كيمبردج، وبعـد أن استمع منـه إلى حـديث علمى عن الفلك.. قـا الدكتور جيمس، إنى كلما تمعنت فى عظمة الخلق والدقة المتناهية الأفلاك، ارتعدت فـرائصـى من عظمة الخالق.. هنا قال لـه الدكتور المشرقى: عندنا فى القرآن آية تصف حالتك هذه بدقة، قال الله تعالى: «... ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألـوانها، وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألـوانه كذلك، إنما يخشى الله من عباده العلماء ..».

صرخ الدكتور جيمس.. «.. إنما يخشى الله من عباده العلماء..»، هـذا مـدهش، وغريب جـدا، إن هـذا الأمـر الذى كشفت عنـه بعـد

دراسة ومشـاهدة استمرت خمسين سنـة، من أنبأ محمدا بها. هل هذه الآيـة موجودة فى القـرآن حقا؟!!. لو كـان الأمر كـذلك، فاكتب شهادة منى أن القرآن موحى به من عند الله..

إن مؤلف كتاب «الإسلام يتحدى» يضـع أمامنا الحقائق العلمية التى توصل إليهـا العلم الحديث، ثم يردنـا إلى آيات القـرآن الكريم التى نزلت منذ أربعة عشر قرنا بحقائق علمية مذهلة تثبت أن آيات القرآن كانت سباقة فى ميدان العلوم المختلفة..

ولقد تناول الكـاتب الظواهر الكونيـة، وحللها علميا، كما تحدث عن علم الأغذية والطب.. ونكتفى بذكر بعض هذه الحقائق:

«مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لايبغيان».

هذه الظـاهرة لم يعـرفها الناس من قـديم الزمـان، وهى انه إذا التقى نهران فى ممـر مـائى واحـد فماء أحـدهما لايـذوب فى مـاء الآخر . ثم ضرب مثلا شاهده بنفسه يقول: لقد شاهدت عند ملتقى نهر الكنج والجامونا (فى مدينـة الله آباد) أن النهرين على الرغم من التقـائهما لم تختلط مياههما.. ويقـول ان العلم الحديث فسر هـذه الظـاهرة بقـانون (المط السطحى) وهـو يفصل بين السطحين، لأن تجاذب الجزيئات يختلف من سائل لآخر..

وينتقل بنا إلى علم الأغـذية فيـذكر لنـا السبب فى تحريم القرآن لأكل الدم ولحم الخنزير، فيقـول، إن الدم يحتوى على كمية كبيرة من (حمض البوليـك) وهو مادة سـامة.. ولـذلك أمرنـا القرآن بان نذبح الحيوان ليسيل دمه، ولا يتجمد هـذا الدم فى العروق، وحذرنا الكاتب من أكل لحم الحيوان الذى يقتل بـالصدمة لأن الدم لايسيل من عروقه..

وبالنسبة للحم الخنزير، قال إن لحم الخنزير يحتوى على كميـة كبيرة من (حمض البوليــك) وأنه لا يفـرز هـذه الكميـة إلا بنسبة

٢٪ فقط، فى حين أن الحيوانات الأخرى تفرزها بنسبة ٩٠٪ عن طريق الكليتين.. ويقول أن اختزان هذه الكمية فى لحم الخنزير هى مصدر الضرر، إنها تتسبب فى آلام المفاصل بالنسبة للإنسان، وحتى الخنزير نفسه يتألم من هذا المرض.. «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق».

الدين والحضارة :

إن المؤلف رجل واسع الثقافة، متعدد الدراسات، ولذلك فقد قام بمسح كبير للجوانب التى تمس موضوعه، وحرص على أن يلتقى مع خصوم الإسلام فى جميع الميادين، فهزمهم فيها مستعينا بالعلم..

ولقد سجل فى آخر كتابه معاركه مع بعض المشرعين المعاصرين، كما سجل معارك مع دعاة التحلل.. ولكنه لم يظل فى هذه المعارك ولذلك سنكتفى بمشاهدة ملاحمه عن بعد..

تحدث المؤلف عن التشريعات المعاصرة وواجهها بفشلها مستعينا عليها بالواقع الذى انتهت إليه وهى أنها عجزت عن تحقيق العدالة، كما استعان عليها بأقلام المشرعين أنفسهم .. ثم اقترح عليهم الحلول الجذرية.

لقد وقع خلاف قديم وحديث فى مفهوم القانون، ثم وقع خلاف فى الغاية من القانون.. حتى أن (فولر) وضع كتابا أسماه (القانون يبحث عن نفسه).

ولقد اشتط البعض فى تعريف القانون حتى ذهب (جوناستين) إلى القول بأن (القانون هو الحكم الذى أصدره رجل رفيع المنزلة سياسيا لمن هو أدنى منه فى المرتبة السياسية).

ولقد اختلف رجال القانون ولايزالون يختلفون حول من له الحق فى وضع القوانين.. أهو الحاكم الفرد الذى يهب الدستور

للشعب.. أهو الشعب الـذى يمنح نفسه هذا الحق بطـريق مباشر ، أهو البرلمان ممثل الشعب الذى يصوغ الدستور والقوانين ؟؟

وهو يحمل بشدة على أسلوب الحكـم الفرد، والأسلوب العام أى الجماهيرى، ثم يأتى إلى الأسلوب المألوف وهو البرلمان فيقول : إنه لم يمثل الشعب بـالكامل فى أى مجلس نيابى، وإنما يمثـل بأغلبية وهذا هــو المتبع فى الدول الديموقــراطية . أما فى الدول الشيـوعية فإن الزعماء يفوزون بالأغلبية الساحقة.

إذن فشل الأسلوب الديموقـراطى والأسلوب الشيوعى فى تمثيل الشعب واضـع القوانين !!

وعلى فـرض أن الشعب مثل تمثيـــلاً صحيحــا، فعلى أى هــدى سيصوغ هذا الشعب ا لقوانين التى تحقق العدل ؟!

ثم إن هناك مشكلة لها خطورتها وهــى أن التشريعات الوضعية خاضعة للتغيير والتبـديل من زمان لزمان، ومن مكـان لمكان، حتى قـال (كـوهلير) ليس هنــاك دستـور أبـدى ، وأى تشريع لعصر ما ليس بالضرورة صالحا لعصر آخر .

ويكتفى الرجل بالرد عليهم بحكمة قالها الدكتور (فرويدمان) : يتضح بعد دراسة هذه الجهود المختلفـة أنه لابد من هداية لتقييم المعيار الحقيقى للعدل، والأساس الذى يحملـه الدين لإعطاء العدل صورة عملية ينفرد بها فى حقيقته وبساطته .

ثم ينتهى بنا الأستاذ إلى هـذه الحقيقة : إن مصدر التشريع هو الله وحده ، خالق الأرض والكون ، فالـذى أحكم قوانين الطبيعة هو وحـده الذى يليق أن يضع دستـور حضــارة الإنسان ومعيشتـه ، وليس هناك من أحد غيره سبحانه .

وتحدث الرجل على عجل عن العلاقة بين الرجال والنساء فقال : إن الإســلام يحرم العــلاقــات بينهما إلا أن يكـون ذلك عن طـريق

الزواج .. واستشهد بمقالة كتبتها طبيبـة (ماريون هيليارد) ضد الاختـلاط قالـت : إننى لا أستطيع أن أسلم كطبيبـة أن العلاقـات الطاهرة ممكنة بين الرجل والمرأة ، ينفردان برضاهما وقتا طويلا .

ثم طـرح أمامنـا احصـائية نشرتها هيئـة الأمم عن النتـاج غير المشروع للعلاقات الجنسية الحرام ، فقال :

لقـد ارتفعت نسبـة الأولاد غير الشرعيين إلى ٦٠٪ ووصلت إلى ٩٠٪ فى بنما .. وتكاد هذه النسبة أن تنعدم فى الدول الإسلامية .

ولمس الكاتب على عجل المشكلـة الاقتصادية المعاصرة ، وتـوجه بالنقد للذين حرموا الملكيـة الفردية ، وأحلوا محلها الملكية الجماعية ، ظنا منهم أنها أكثر عدلا ، وأنها تحقق المصلحـة العامة وتضاعف الإنتـاج .. ثم تطاولـوا على الديـن متهمين إياه بأنـه ضد مصلحـة الشعوب ، لأنه يؤمن بالملكية الفردية .

وبأسلوبه المقنع وضع أمامنا هذه الحقيقة .

قال إنه فى روسيـا توجد مزارع جماعية ، ومزارع فـردية ، وقد أثبتت التجارب أن المزارع الجماعية تحقق عائدا لا يصل إلى نصف ما تحققه المزارع الفـردية المماثلة .. فمثلا كان ناتج الفـدان ـ عام ١٩٦٠ ــ فى ا لمزارع الجماعية سبعـة أطنان من البطـاطس فى حين كان ناتج الفدان فى المزارع الفردية ــ أحد عشر طنا ـ وكانت نتيجة الزراعة الجماعية فى روسيـا أنها كانت من الدول المصدرة للقمح فى عهد القصرية ، فصارت دولة مستوردة للقمح .

ثم انتهى إلى أن الملكيـة الفرديـة التى يأخذ بها الـدين يمكن أن تحقق العدالة بين الناس ، وتحقق التنافس المشروع بينهم .

وينتهى بنـا المؤلف إلى أن الدين بإمكـانه أن يحل كل المشـاكل التى يعانى منها الإنسان .. ويصوغ هـذا المعنى بأسلوبه الرفيع .. فيقول : إن الإيمان بـالله يعطى الإنسان محركـا هو أسـاس سائر

الأخلاق الطيبة ، ومصدر قوة العقيدة ، العقيدة التى عبر عنها (السير ويليام أوسلر) بقوله : (إنها قوة محركة عظيمة ، لا توزن بأى ميزان ، ولا يمكن تجربتها فى المعامل) ، إن هذه العقيدة هى سر مخزن الصحة النفسية الموفورة، التى يتمتع بها أصحابها ، وأية نفسية محرومة من هذه العقيدة لن تنتهى إلا بالمرض.

ثم يصف كاتبنا متاعب الناس ويصورها بقلم يقطر ألما وحزنا :

(لقد دمر الإنسان تدميراً شديدا ، الأجسام تحت الأثواب البراقة أحوج ما تكون إلى الهدوء والسعادة الحقيقيين ، والأبنية الفخمة تسكنها قلوب محطمة ، والمدن المتلألئة ببريق الحضارة هى بؤر الجرائم ، والحكومات الجبارة مصابة بالدسائس الداخلية وعدم الثقة، والمشروعات الضخمة تبوء بالفشل نتيجة للخيانة ، وكل هذا يرجع إلى حرمان الإنسان من نعمة الإيمان بالله !!!

واستشهد على كلامه بما قاله العالم النفسى (البروفيسور يانج) قال : لقد طلب منى أناس كثيرون مشورة لأمراضهم النفسية ، ولم تكن مشكلة هؤلاء إلا الحرمان من العقيدة الدينية .

واختتم كتابه القيم (الإسلام يتحدى) بحكمة بالغة قالها البروفيسور (كريسى موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بأمريكا : إن الاحتشام والاحترام والسخاء وعظمة الأخلاق ، والقيم والمشاعر السامية وكل ما يمكن اعتباره (نفحات إلهية) لا يمكن الحصول عليها عن طريق الإلحاد :

(فالإلحاد نوع من الأنانية ، حيث يجلس الإنسان على كرسى الله).

(لسوف تقضى هذه الحضارة بدون العقيدة والدين) .

(وسوف يتحول النظام إلى فوضى) .

(وسوف ينعدم التوازن وضبط النفس والتمسك) .

(وسوف يتفشى الشر فى كل مكان) .

(إنها لحاجة ملحة أن نقوى من صلتنا وعلاقتنا بالله) .

من القضايا المحيرة التى تشغل بال الجميع .

هل توجد خصومة حقيقية بين الديانات السماوية .

وهل هذه الخصومة تعزى إلى أصحاب هذه الديانات ؟

هذه الأسئلة المحيرة سنجيب عليها ، ولكن بأسلوب يبتعد بنا عن الجدل والمراء .

سنجيب عليها من خلال لقاء تاريخى تم بين ميلاد سيدنا المسيح وميلاد سيدنا محمد عليهما السلام .





من حسن طالع الإنسانية التقاء ميلاد السيدين العظيمين : محمد والمسيح عليهما السلام .. وليت الإنسانية تتخذ من هذه المناسبة الجليلة وسيلة لإشاعة الحب والعدل والإخاء بين البشر ، لأن الدين الذى دعا إليه محمد والمسيح وكل الأنبياء دين واحد ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « إنا معشر الأنبياء ديننا واحد ، وأنا أولى الناس بابن مريم ، لأنه ليس بينى وبينه نبى » .

وبنفس الإحساس بوحدةالعقيدة ، قال المسيح عليه السلام قبل ستة قرون من ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم : « وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم ، مصدقا لما بين يدى من التوراة ، ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » .

إن لكل من ميلاد المسيح ومحمد قصة .. وقصتهما تدعو للإيمان بالله وبهما .. فما قصة ميلادهما ؟



٨
اللقاء بين محمد والمسيح

موسى يبشرنا بالمسيح :

جاء فى إنجيل يوحنا : أن نثناتيل عجب حين قال له صاحبه « إنا وجدنا الذى أنبأنا عنه موسى ، وأنه من الناصرة فى الجليل » .

وعلى الرغم من ورود هذه البشرى عن رسول بنى إسرائيل إلا أنهم جابهوها بالتكذيب فقالوا : « آمن الناصرة يجىء شىء صالح » .

ولكن النبوءة تصدق وتشرق الناصرة بنور المسيح عليه السلام ، فتعم أرض فلسطين وما حولها .

ويهزم التآمر اليهودي من أول يوم .. كما يهزم صولجان الرومان فى فلسطين .. ويستتب الأمن فى البلاد التى لم تكف عن الثورات .. ويشيع الحب والتراحم بين الناس ، وتمسح يد المسيح

على أدواء النـاس وأوجـاعهم ، فيشفيهم الله .. كل هـذا يتم خـلال فترة لا تزيد على ثلاثة أعوام ، فما أروعها من معجزة .

كان لابد من مقدمـات لتتهيأ البشرية لتقبل ميلاد طفل دون أب لأنها معجزة خـارقة للعـادة ، وحتى تتقبل البشرية هـذه المعجزة ، قدمت لها معجـزة أخص منها ، وكانـت قصة ميلاد السيـدة مريم العـــذراء التي ولـــدت مـن شيخين كبيرين ، ثم اختيـــار الله لها ، وأكرامها بنزول الملائكة عليها : « وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفـاك وطهـرك واصطفـاك على نســاء ا لعـالمين » ، ثم تنـزل الملائكة بعد ذلك لتبشرهـا بأنها ستحمل فى بطنها بالمسيح وتصف لها ابنها قبل أن يـولد « وإذ قـالت الملائكة يـا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مـريم ، وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين » .

ثم تكون المعجـزات المادية المحسوسة لتـؤكد لمريم أنها ليست فتاة عادية كغيرها من البشر .. فقد تكفلت السماء بأطعامها للتفرغ لعبادتها ولخدمة المسجد .

ويدخل عليها النبى الوقور ، زوج خـالتها سيدنا زكريا فيعجب لحالها ، وهى تأكل من طعام طيب غير مألـوف لديه ، ويسألها عن مصـدر هذا الطعـام ، فتقـول : « قالـت هو من عنـد الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » .

وينبهر النبى بـالمعجزة الماثلة أمامه ، فيعجـل بالضراعة إلى الله ليحقق لـه معجزة كـان يصبـو إليها ويـرزقـه بابن يخلفـه فى أداء الـرسـالة ويـؤنس بـه وحـدتـه ، ويعينه فى أمـره بعـد أن تجاوز التسعين من عمره « هنـالك دعا زكـريا ربـه ، قال : رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الـدعاء » .. وتستجاب الدعوة ، وتحمل الملائكـة البشرى لزكـريا : « فنـادته الملائكـة وهو قـائم يصلى فى

المحراب، إن الله يبشرك بيحيى ، مصدقا بكلمة من الله ، وسيدا وحصورا ، ونبيا من الصالحين » . وتتحقق المعجزة وتحمل زوجة زكريا بيحيى .

وتحمل مريم بالمسيح .

وتعجب مريم وزوجة زكريا لظاهرة عجيبة ، وهى أن يحيى كان يسجد إكراما للمسيح وهما لا يزالان فى بطن أميهما .

ويلاحظ يوسف النجار والذى كان يلازم مريم فى المسجد ويتعبد معها ويساعدها فى خدمة بيت الله ، يلاحظ آثار الحمل على العذراء ، فيسألها فى حياء : إنه قد وقع فى نفسى من أمرك شىء ، وقد حرصت على أن أكتمه ، وقد غلبنى ذلك ورأيت أن الكلام أشفى لنفسى .

قالت له : قل قولا جميلا ..

قال : أخبرينى يا مريم ، هل نبت زرع بغير بذر ؟

قالت : نعم .

قال : فهل نبتت شجرة بغير غيث ؟

قالت : نعم .

قال : فهل يكون ولد بغير ذكر ؟

قال : العذراء الطاهرة : ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر ؟ والبذر إنما يكون من الزرع الذى أنبته من غير بذر ، ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الشجر من غير غيث ، وبالقدرة جعل الغيث حياة الشجر بعدما خلق الله كل واحدة منها على حدة ؟ أو تقول أن الله لا يقدر أن ينبت الشجرة حتى استعان بالماء ، ولولا ذلك لم يقدر على إنباته ؟

أجابها يوسف : لا أقول هذا ، ولكنى أقول أن الله تعالى يقدر على ما يشاء ، يقول للشىء كن فيكون .

فقالت له مريم : ألم تعلم أن الله تعالى خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى ؟

فقال يوسف : بلى يا مريم .

وآمن يـوسف أنـه أمـام معجزة بـاهـرة ، لا تخضع لنـواميس الكون العادية ، فعزم على أن يقف إلى جوارها ويقوم على خدمتها ، ويدافع عنها ، ويصاحبها فى كل أسفارها .

المعجزة الكبرى :

وتمت المعجزة الكبرى بميلاد المسيح فى بيت لحم ، تمت تحت شجـرة نخل يابســة ، قبل شروق الشمس بقليل ، وكانت الـولادة يسيرة سهلــة ، ولم يكن مع مــريم طعـام ولا شراب ، وإذا بهاتف يأتيهـا من السماء « وهزى إليك بجـذع النخلة تسّاقط عليـك رطبا جنيا » .. فتمـد يديها الواهنتين وتهز الشجـرة اليابســة ليتساقط منهـا رطب طيب ، ولا تجد عنــاء فى الشرب قـد جـرى نهر صغير عذب الماء تحت أقدامها « ... قد جعل ربك تحتك سريا » .

وتحمل الطـاهرة وليـدها ، وتتجه إلى النـاصرة بلدتها ، فتقـابل بمظاهر الاحتجاج والاستنكار من قـومها ويهتفون بها « لقد جئت شيئـا فريـا » .. ويـذكـرونها بأنها ابنة لـرجل صـالح ، وأنهم لم يكونـوا يتوقعون منهـا أن تأتى بهذا الإثم .. ولما كانت العـذراء قد نذرت الا تكلم الناس ثلاثة أيام فقد اكتفت بالإشارة إلى وليدها.

وهنـا نطقت المعجـزة بكلمة الحق : « قـال إنى عبـد الله آتـانى الكتـاب وجعلنى نبيــا ، وجعلنى مبـاركـا أينما كنـت ، وأوصـانى بالصـلاة والزكـاة مادمت حيا ، وبـرا بوالـدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » .

انبهـر القوم بهذه المعجـزة الخارقة وتأكـد لهم طهارة العـذراء وصدقها .

ومضت المعجزة على يد المسيح ، تؤكد صـدقه وصدق رسالته ، فكان ينبىء النـاس بما يأكلون وبما يـدخرون فى بيـوتهم ، وكانت يـده الطاهـرة تمسح على المريض فيشفى ويـدعو لـلأعمى فيبصر وللأموات فينهضـون واقفين .. ويؤكد لقومـه أن كل هذه المعجزات من الله خالق كل شىء .

ويسجل التـاريـخ انتصـارات السيـد المسيح على كـل خصـوم دعوته، ينتصر عليهم بالحكمة والصبر والثبات .

وكما بشر موسى عليـه السلام بميـلاد ا لمسيح ، بشرنا المسيح بميـلاد محمد عليـه السلام .: « ومبشرا بـرسول يأتى من بعـدى اسمه أحمد » .

ابن الذبيحين :

وبعـد ستـة قـرون من ميـلاد المسيح تتهيأ الأرض لاستقبـال (ابن الـذبيحين) محمـد صلى الله عليه وسلم .. وهـذه التسميـة أطلقها الـرسول على نفسـه فقال (أنا ابـن الذبيحين) ويعنى بهذا انه من نسل اسماعيل الذى أمر أبـوه ابراهيم بذبحه ولكن الله فداه بذبح عظيم .

أما الذبيح الثانى فهو أبـوه عبدالله ، والذى كان سيذبح ضحية نذر قطعة جـده عبد المطلب على نفسه تقـربا الى الالـهة إذا رزقه الله بعشرة أولاد أن يـذبح احـدهـم .. وشـاءت ارادة الله ان ينجيـه من الذبح ليخرج من صلبه النفحة الربانية المباركة .

ونجت البشريـة بنجـاة الذبيحين ليكـون منهما رحمة للعـالمين ومـا أرسلناك إلا رحمة للعـالمين . وكما كتب الله لـرسـوله الحيـاة بنجاة الـذبيحين ، كتب الله للمسجد الحرام ومكـة النجاة مـن غزو خارجى مـدمر ، فقد جاءهـا ابرهة بجيش مزود بأحـدث الأسلحة وبأكبر الفيلـة ، فسلط الله عليه وعلى جيشه قـوة من الطير المزودة

بحجارة نارية قاتلة ، فنجت الكعبة ونجت مكة ونجا قوم النبى ، وفى هذا العام (عام النجاة) ولد محمد .

وماذا حدث فى العالم ساعة ولادته ؟

فى الساعة التى ولد فيها محمد تشقق بناء أكبر عرش على الأرض ، وهو عرش كسرى ملك فارس ، وانهار أربعة عشر ركنا من أركان قصره الشهير ، كما خمدت نار الفرس المقدسة التى ظلت مشتعلة لأكثر من ألف عام ، وعجز سدنتها من إشعالها ، وفى نفس الوقت شوهد شعاع نورانى يخرج من مكة ساعة ولادة محمد فيضىء قصور بصرى .

كيف تمت الخطبة :

خرج عبدالمطلب من بيته بصحبة أحب ابنائه اليه ، ومضى فى طرقات مكة قاصدا بيت صديقه وهب بن عبدمناف ، ليخطب منه آمنة لابنه عبدالله ..

وفجأة تعترض طريقهما امرأة تدعى (قتيلة) ودون مقدمات تهمس فى أذن عبدالله : اين تذهب فى ساعتك هذه ؟

قال عبدالله وهو يبتعد عن المرأة : هناك الى حيث يقودنى أبى .

وبجرأة بالغة ، وبدون حياء قالت له : قف واسمع ، إنى أهبك مائة من الإبل ، وهى التى وجب على ابيك التضحية بها لانقاذ حياتك ، إذا قبلت ان تكون لى الساعة ؟

تراجع عبدالله مذعورا : وقد أذهلته جرأة المرأة ، فلما رآها تقف منه فى تحد قال لها : إنى فى صحبة أبى الذى لا استطيع مفارقته .

ومضى الشاب يجد فى السير خلف أبيه الذى قاده الى بيت خطيبته ، وتمت اجراءات الخطبة فى بساطة ، كما تم الزواج فى بيت عمه أبى طالب ، حيث قضى ثلاثة أيام مع زوجته ..

ثم خرج من بيت الزوجية ولقى (قتيلة) على ناصية الطريق

وقد تغير لونها وظهـر عليها الغضب وبادرته بسـؤال غريب فقالت له : من أنت ؟

قال : أنا عبدالله بن عبدالمطلب ..

قالت : أنت ذاك الذى كان جبينه يلوح لى تحت إكليل من النور ، وقد اختفى الآن منه ، ما الذى حدث بعد ان تلاقينا ؟ -

فقص عليهـا عبدالله خبر زواجـه من آمنـة ، حتى اذا انتهى من روايته قالت لـه وهى تودعه : والله ما أخطأت فيما كـان منى ، لقد كشفت على جبينك نـورا ، ورغبت ان امتلكه ، ولكنـه الآن أصبح فى حيـازة امـرأة أخرى ستلـد أفضل الخلائق ، ولم يبق فيك الآن مـا يجذبنى نحوك ..

وانصرفت المرأة حـزينـة كسيرة النفـس ، لأنها كـانت تطمع أن تكـون أم النبى ، الذى أخبرهـا عنه أخـوها ورقـة بن نوفل ، فقـد حـدثها ان نبيـا سيولـد فى هذه الأرض ، وان والـده يعرف بنـور يتـلألأ فى جبينه بمثل لألأة الماس أو النجـوم ، وقد تجلت لها هـذه الأوصاف فى عبدالله .. فاشتدت فى البحث عنـه لتكون له زوجة لأنه لم يعرف عنها السوء أو الانحراف .

وتنتهى قصة قتيلة ويطويها الزمن ، لتبدأ قصة أخرى يشهدها بيت أبى طـالب حيث تم الـزواج بين عبـدالله وآمنـة . ثم تشرق الأرض بنور محمد .

أم محمد تحدثنا عن وليدها :

وأما عن حملـه وميـلاده فينسب الى أمـه آمنة أنها قـالت : منذ اليوم الأول الذى حملت فيه ولدى حتـى الساعة التى وضعته فيها لم أشعر بأى ألم ، وإنى حتى لم أشعر بمجرد ثقل ، بل ما شعرت انى حملت به حتى أتانى آت ، وأنا بين المنام واليقظة فقال : انك قد حملت بسيـد هـذه الأمة ونبيهـا ، اعلمى ذلك .. وفى نفس اللحظـة

خرج من أحشائى خيط من النور وتـرامى ناحية المشرق حتى بلغ أرض الشـام ، وعندمـا دنا مـوعد ولادتى ظهـر لى الملك من جديـد وأوصـانى قائلا : عنـدمـا تضعين ولـدك قولى (أعيـذه بـالواحـد الصمد من شر الحاسدين وسميه محمدا فهذا هو الاسم الذى بشر به فى التـوارة والانجيل لأنه سوف يحمـد من جميع سكان السماء والأرض).

وقبل طلـوع شمس يـوم الاثنين الثـانى عشر من شهـر ربيع الأول (عام ٥٨٠ميـلادية) ولد الهدى فاستضـاءت به السماوات والأرض ، وأشرقت به قلوب وعقول الانسانية كلها .

وتمضى المعجـزات مع الـوليـد تسجل بصماتها فى كل مكـان يـرده ، وتحدثنا مـرضعتـه حليمة عن طـرف من طفـولة محمـد ، وتقول : (مـا إن قدمنا منـازلنا فى بنى سعد ، ومـا أعلم أرضا من أراضى الله هى أجـدب منهـا ، فكانت غنمى تـروح شبـاعـا لبانـا فنحلب ونشرب ، ومـا يحلب انسان قطـرة لبن ، حتى كـان قومنـا يقـولون لـرعاتهم ، ويلكم أيها الحمقى اسرحـوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب ، وكان النبات يترعرع لمقدم أغنامى ، ثم يذبل عقب مرورهم به ..).

وتروى لنـا حليمة قصة شق صـدر النبى وكان فى الـرابعة من عمره ، والتى قصها أخـوة فى الرضاع ، ومؤداهـا ان شخصين كانا يلبسان ثيابا بيضاء اخذاه وشقا صدره ، وأخرجا منه شيئا أسود ، ثم أعاداه لحالته الأولى ، ثم اختفيا ..

حديث الراهب بحيرا :

ويشب محمد ويسـافر الى أرض الشام ، وتمضى القافلـة قبالة جبل حوران حيث يقيم الراهب بحيرا ، ويذهل الـراهب وهو يشاهد سحابًا أبيض يغطى صفحة السماء ، ويظلـل إحدى قوافل التجارة

القادمة من بلاد العرب ، وتتـوقف القافلة لتستظل بشجرة كبيرة ، فيتقدم منهـا بحيرا يدعـو أصحابها لتنـاول الطعام مُعـه ، فيذهب القوم بإستثنـاء محمد ، فيسألهم بحيرا عن سبب تخلفـه فيتعللون بحـداثـة سنـه ، ولكـن بحيرا يصر على دعـوتـه ، ويحضر الشـاب ويجلسه أمـامه يتأملـه طويـلا ويسأله كثيرا ، ويتمكن مـن خلال مناقشتـه له وتفحصـه من اكتشاف (خـاتم النبوة) .. ثم يـوصى عمـه قائلا لـه : (ارجع بابن اخيك الى بلـده ، وأحذر عليـه يهود ، فوالله لئن رأوه ، عرفوا منه ما عـرفت ليبغونه شرا ، فإنه كائن لابن اخيك هذا شأن عظيم .

وكانت المعجزة الخالدة :

وتبدأ خيـوط المعجزة الخالدة فى الكهف حيث كان محمـد يخلو بنفسه ليتأمل ويتعبد ، وتسجل أول آيـة على قلبه ، اقرأ باسـم ربك الذى خلق ، خلق الإنسـان من علق ، إقرأ وربك الأكـرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ..

ويحمل المعجزة بكل ثقلها قـرابة ربع قرن .. يصلي بها ويصـوم بها ويـزكى بها ويقـاتـل بها الى ان يسجل النصر المبين . ويحقق محمد بمعجزته أضخم المعجزات..

الرجال الذين رباهم على يـديه وصاروا معجزات بشرية ، فليس كمثل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، والقريـة التى نشأ فيها صـارت عاصمـة اسلامية يحج اليهـا والى المسجد القـائم بها ملايين البشر من كل فج عميق .

والعلم الذى تركـه استنارت الانسانية بـه أكثر من أربعة عشر قـرنا ، والأمـة التى بناهـا لم يهتز صرحهـا على الرغم من معـاول الهدم المسلطة عليها .

والخلق الـذى وضع أسـاسـه ، كـان ولا يـزال أصلب قـاعـدة

للسلوك الانسـاني الجميـد ، والعدل الذى أقـامه حفـظ على الناس أرواحهم وأموالهم وأعراضـهم .

والأسرة التى جمع شملها صارت أقـوى لبنة فى بناء المجتمع .. والقوانين والنظم التى لا تـزال المصدر الحى النـابض لكل القوانين التى تنشد الحق والعدل .

وأعظم معجزاتـه المعجزة الخالـدة ، إنها ستظل باقيـة ما بقيت أنفـاس الانسانيـة فى الأرض ، « إنـا نحن نـزلنا الـذكـر ، وإنا لـه لحافظون».

وأعظم معجزاته انه لا نبى ولا رسول بعده .

ولقد ودع رسـول الله العالم بعـد أن أودع فى عنقه قـول الله : « اليـــوم أكملت لكم دينكـم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيـت لكم الاسلام دينا».

وأخـــيرا ..

وأخيرا لمَ لا نلجأ لمن أوصـانـا ربنـا ان نلجأ اليـه اذا التبست علينا الأمـور ، واستبدت بنـا الحيرة ، ونسأله ان يفيض علينـا من الحكمة التى أفـاضها الله عليـه : « لقد من الله على المؤمنين اذا بعث فيهم رسـولا من أنفسهم ، يتلـو عليهم آياتـه ويـزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانـوا من قبل لفى ضلال مبين » صدق الله العظيم.. لم لا نلجأ اليــه ونلتمس منـه الحكمـــة ، لنتهـدى بها فى حياتنا ..

ولتكن حكمة الـرسول هى خير مـا نختتم به هـذا الكتاب والله ولى التوفيق .



٩

نظر محمد حوله فإذا به فى مواجهة شعب مشتت ، لاتحكمه رابطة ، ولا تمسكه عقيدة ، ولا تضبطه حكومة ، ولا يسوسه فكر .

شعب يقتل الأب فيه طفله خشية الجوع والحاجة .

شعب يقتل الأب ابنته وهى فى المهد خشية عار يتوهمه.

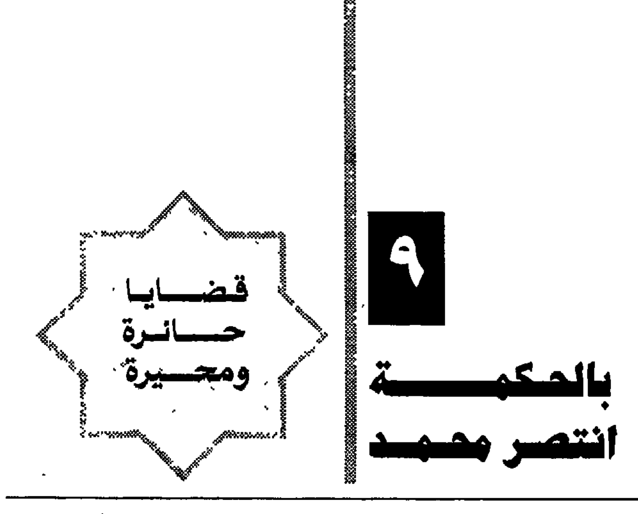
شعب يقتل فيه الرجال طمعا فى المال .

وتسبى النساء للاستمتاع بهن شعب تقوم تجارته على بيع الرجال وبيع وشراء أعراض النساء ، أو وراثتهن عن الآباء .

شعب يسكن بيوتا مزودة بجرار الخمر ، وبتماثيل الآلهة وبأدوات القمار ، وقداح الحظ .

شعب لا يعرف عن الحضارة شيئا .. فهو على الرغم من وقوعه بين ثلاث حضارات ، حضارة الروم فى الشمال، واليمن فى الجنوب ، والفرس عن شماله إلا أنه كان متخلفا عمرانيا وفكريا .

شعب ورث عبادة الآباء والأجداد يتفاخر بهم ويتعبد بذكراهم .



٩
بالحكمة انتصر محمد

إلى هذا الشعب ، والى الشعوب من حوله ، والتى كانت تعيش فى ضلالات متقاربة ، والى شعوب لم ترها عين محمد ، أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .. أرسله لذلك الشعب ، ولمن حوله من أبناء القرن السادس ، ثم لكل القرون.. ومنها قرننا .. وقرننا فيه العرب ، والغرب ، والشرق الأوسط والأقصى .. أرسله الى آسيا وافريقيا وأوروبا وأمريكا .. أرسله لكل ناطق بالعربية والانجليزية والفرنسية والروسية .. ولغة الصين والهند لكل هؤلاء أرسل محمد ليكون لهم رحمة وهدى وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين .. فكيف خاطب محمد أبناء عصره والعصور التى لم يرها ؟!

لقد خاطبهم بالحكمة .. والحكمة لغة تعلو على كل الألسن

واللغات لأنها لغة إنسانية تخاطب القلوب ، والمشاعر ، والعواطف ، وقد ألزمه ربه بها « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم باللتى هى أحسن .

بالحوار المقنع بدأ دعوته :

بعد ان تزود رسول الله بآيات الحكمـة ، بدأ يمارسها عملا وهو يدعـو الناس الى دينه الجديـد .. طرق كل بـاب فى مكة يدعـو أهله للايمان بدعوته ، وغـزا الأسواق .. وكان يحاور الكبار والصغار ، والنسـاء ، والسـادة والعبيد .. وغير العرب .. وكـان فى حواره معهم رقيقا هينا لينا سهل المدخل ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حـولك ، فـاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشـاورهم فى الأمـر ، فإذا عزمت فتوكل على الله .

ومع هذه الرقة والحكمة كان يقـابل بالصد والاعراض ، فيأمره ربه بالمزيد من الصبر والمزيد من الحكمة « ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الـذى بينك وبينـه عـداوة كأنـه ولى حميم ».. ثم يقـابل بالتحدى ، وتقـدم له مطالب غريبة لاعجازه « وقـالوا لن نؤمن لك حتى تفجـر لنـا من الأرض ينبوعـا ، أو تكـون لك جنـة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خـلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفـا ، أو تأتى بالله والملائكـة قبيلا ، أو يكـون لك بيت من زخرف ، أو تـرقى فى السماء ، ولن نؤمـن لرقيك حتى تنـزل علينا كتابا نقـرأه .. كل هذه المطالب قصد بها التحـدى والاعجاز ، ولكن النبى يقـابلها بهدوء ، ودون انفعـال ، ويتكفل ربه بـالرد على هـذا التحدى قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا .

يـواجـه الرسـول بـآلاف الأقضيـة والتحديـات فيتصـدى لها بـالحكمة مستعينـا بـالتاريخ ، أو بـالقصص أو بـالأمثلة فيـؤمن البعض فيأمـره ربه ان يلتـزمهم ويحنو عليهم « واخفض جنـاحك

لمن اتبعك من المؤمنين »، ويعرض آخرون فيأمره بالمزيد من الصبر فـاصبر كما صبر أولـو العـزم من الـرسل ، ثم يـواجـه بحـرب الاشاعات والافتراءات .. يقال عنه انه مجنـون ، وشاعر ، وساحر ، وصـديق حميم للجن ، وكـاهـن .. فتأبى حكمتـه ان يـرد بمثلهـا ويكتفى بتفنيد هذه الاشاعات والرد عليهـا ردا موضوعيا فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ، ويشتـد التكذيب فيقابل بالآناة والحكمة « وإن كـذبوك فقل لى عملى ، ولكن عملكم ، أنتم بـريئون مما أعمـل ، وأنا بـرىء مما تعملون .. وبـدأت مرحلـة جديـدة من المواجهة تمثلت فى إيـذاء الكبار ـ أى كبـار القوم ـ ومنهم الـرسـول عليه الصـلاة والسلام ، وتعـذيب الصغار ــ أى المستضعفين من العبيـد والاماء ــ فيحاول الـرسول ان يصرفهم بـالحكمة عن هـذا الأسلـوب اللاإنسـانى ، ولكنهم يصرون عليه بل ويتمادون فيـه .. فماذا يفعل ؟ لم يكن بيـده ان يـدافع عن أصحـابـه ، ثم إن دينـه يرفض مقابلة هذا الأسلوب الوحشى فى التعامل مع الخصم بمثله ، فيلجأ الى ربــه ليخفف عـن أصحــابــه ، ويــوصيهم بــالصبر والاحتساب (صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة).

ويشتد العـذاب وتشتد المطـاردة ، فيأمر أصحـابه بترك وطنهم واللجـوء الى أرض تستظل بحـاكـم عـادل ، فيهـاجـرون الى أرض الحبشــة ، ويأبى الكفرة إلا مـلاحقتهم عند النجـاشى ، ليستثيروا نزعتـه النصرانية ضد الدين الجديـد .. ولكن الرجل الحكيم يستمع لحجج الطـرفين ثم ينتصر لأصحاب محمـد ويمنحهم حق اللجـوء السياسى ويطـرد عتاة مكة ويـردهم خائبين .. ويستمـر العذاب ، ويأخــذ العـديــد من الصــور ، التجـويع والعــزل الاجتماعى ، والسجن.. ويقابل كل هذا بالصبر .. وهـو فى هذه الشدة والضائقة يأتيـه جبريل ويطرح أمـامه حـلا عسكريا .. يقـول له (لـو شئت

اطبقت عليهم الأخشبين ـــ الجبلين) فيكون جـواب النبى غايـة فى الحكمـة (لعل الله ان يجعل من اصـلابهم من يعبد الله عـز وجل) وبعد ان يبلغ مـرحلة اليأس من قومـه يأتيه هاتف السماء يـدعوه لهجـرة هذا المجتمع الفـاسد البـاغى ، الى مجتمع آخر يتسع قلبـه للمعرفة ، ويصبو الى الايمان ..

وبعد ان كـان محمد لا يسمع إلا صراخ المعـذبين بمكة تـرامى اليه هتاف الملبين بالمدينة (ايها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع) ، ومع هذا الترحيب من معظم أهل المدينـة ، كانت قلاع اليهود تـدبر تـآمـرا ، وتستعين ببعض الموتـورين من زعماء المدينـة .. ويحاول الرسول جهـده ان يتفاهـم مع اليهود باعتبـارهم أهل كتاب ، ولكنه لا يكسب منهم إلا القليل .. أما أهل المدينة الذين رفضوا الايمان به فلم يمدوا اليهم يده بالسوء ..

بل على العكس ظل يـلاطفهم ويجاملهم حـرصا على مـودة من استضافوه من ذويهم .. وتكفينا قصـة عبدالله بن ابى نختارها من آلاف القصص كنمـوذج يؤكـد مدى النجـاح الذى حققـه الرسـول بحكمته وهـو يعالج مشاكل قومـه ، فعبدالله بن أبى كان مـرشحا لملك المدينة فى السنة التى قـدم فيها الرسول اليها ، وكـانوا يعدون له الخرز ليتـوجوه بها ، فلما حل الرسـول بالمدينة اسلم لـه أهلها القيـادة ، فحقد عبـدالله على الرسـول وعلى كل من آمن به ، ولكنـه لم يستطع ان يـواجههم بـالعـداوة وآثـر أسلـوب الكيـد والـدس والنفاق ، وقد بلغ كيده قمـة الخطورة فى غزوة بنى المصطلق ، فقد آثار فتنـة بين المهاجـرين والأنصـار كادت تـؤدى بهم الى الاقتتال بالسـلاح ، فاشتد غيظ عمـر بن الخطاب منه واقترح على الـرسول ان يـرسل اليه بمن يقتلـه ، فقال لـه الرسـول (فكيف يا عمـر اذا تحدث الناس ان محمدا يقتل أصحابه)..

وتـرامى الى ابن عبـدالله ابن ابى وكـان من المؤمنين مـا أشـار بـه الصحابة من قتل ابيه ، فذهب الى الرسول وقال له (إنه بلغنى انك تريد قتل أبى ، فإن كنت لابد فاعلا فأمر لى فأنا أحمل اليك رأسه.. لأننى أخشى أن تأمر غيرى بقتلـه ، فلا تـدعنى نفسى ان انظر الى قاتل ابى فأقتله ، فأكون قد قتلت مؤمنا بكافر فأدخل النار) فقال له الرسول (بل نترفق به ونحسن صحبته ، ما بقى معنا).

وانتصر الرسول بحكمتـه على من كان سيملك المدينة ، ويحكى ان الرسول شـاهد عبدالله ابن أبى وهو منكس الـرأس ، فقال لعمر (كيف تـرى يـا عمـر ! أما والله لـو قتلتـه يـوم قلت لى : اقتلـه ، لأرعفت له أنـف لو أمرتها اليـوم لتقتله لقتلتـه) ، فقال عمـر : قد والله علمت لأمـر رسـول الله صلى الله عليـه وسلم أعظم بـركـة من أمرى . بمثل هـذا الأسلوب الحكيم هـزم الرسـول من كان سيملك المدينة دون قتال وجمع شمل المسلمين حوله ، وألف بين قلوبهم .

وبالحكمة حرر الرسول العبيد :

لقد ووجـه رسول الله وهو يعـالج قضايـا قومه، بصـور بشعة من هذه القضايـا منها قتل الأطفال خشية الجوع أو العـار، فواجه هذه الجريمـة بحسم وأعلن حربا ضاريـة عليها حتى سجل النصر فى هذه المعـركة.. لكن تبقت قضايـا كثيرة بالغة الخطـورة استعان عليها بالصبر وعالجها بالحكمة.. فالاصنام التى كانت تملأ الكعبة، لم يهدمها بمعوله إلا بعد عشرين سنة مـن دعوته.. ولكنه هدمها فى نفوس المؤمنين بالدعوة إلى الإيمان بـالله وعدم الاشراك به، كما هدم كيـانها فى نفـوس المشركين، وأوهن من قـدسيتهـا.. فلما عـزم على إعمال معوله فيها تداعت إلى الأرض، وتداعى معها إيمان قومه بها .

وكـانت قضية العبيـد والاماء معقـدة غايـة التعقيد، لأن العبيـد والإماء كانوا بمثابة سلعـة تباع وتشترى ،وكانت هذه التجارة تمثل

الـدعامـة الاقتصاديـة لمجتمع السادة، كـان التفاضل بينهم بقـدر مـا يملك السيـد من العبيـد، وبقدر مـا يستمتع بـالجميـلات من الامـاء.. إنها مشكلة اقتصـاديـة ومشكلـة اجتماعية، فإذا واجههـا الرسـول بالشدة التى واجـه بها قضية وأد البنـات وقتل الأطفال، فإنه سيلقى مقـاومة عنيقة، فلجأ لأسلوبـه الحكيم، وهو التشجيع على عتق العبيد، أما بالنسبة إلى الإماء فناشد السادة بعدم اكراههن على البغاء، وهـذا بناء على ما أوصى بـه ربه «ولا تكرهـوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا»..

وحتى ينجح فى دعوتـه لتحرير هؤلاء الرقيق، استقطبهـم لدينه، وضمهم لأصحـابه، وسـاوى بينهم فى كل شىء.. فبـادر أصحـابـه بتحـريـر هـؤلاء الرقيق، استقطبهـم لدينـه، وضمهم لأصحـابـه، وساوى بيتهم فى كل شىء..

فبادر أصحـابه بتحـرير عبيدهم، كما بـادروا بتحـريـر الأرقاء الذين كانوا يسامـون العذاب وذلك بشرائهم من سادتهم ثم إطلاق حريتهم..

ثم استحث المؤمنين على إطـلاق حريـة العبيد تقـربا إلى الله أو تكفيراً للـذنـوب.. وبذلـك تمكن بحكمته من تطـويق هـذه المشكلـة الاجتماعيـة بل انـه نصب من هـؤلاء المحـررين من تـولّى قيـادة جيـوشـه، أو تفقيـه النـاس أصـول الـدين، أو الأذان.. وهـا نحن لا نـذكـر بـلالا أو صهيبا أو سلمان الفـارسى إلا بعـد أن نقـرن أسماءهم بالسيد.

وبالحكمة تحطمت جرار الخمر :

ويواجه الرسول بقضية غاية فى التعقيد، وهى شرب الخمر، فقد كانت معظم بيـوت أهل مكة والمدينـة مزودة بجرار الخمـر، وكانت تجارة الخمر من اروج التجارات.. فماذا يفعل الرسول.. كانت أولى

خطواتـه نصيحة أصحـابه بعـدم شرب الخمر مبينـا لهم أضرارها النفسية والصحية..

ومع هـذا فإن بعض حديثى الاسـلام لم يكفـوا عن تنـاولها.. وتصادف أن قـام بعض هؤلاء للصـلاة فأخطأوا فى قـراءة القرآن، فنزل على الفور تحذير من السماء بنهى المسلمين عن الصلاة وهم فى حـالـة سكـر.. «لاتقربـوا الصـلاة وأنتم سكـارى حتى تعلمـوا ما تقـولون» ومع هـذا لم يكف النـاس عن شرب الخمر بـاستثناء المؤمنين،، ويواصـل الرسول دعـوته للكف عـن شربها، واستهجان شـاربيها، ثم تأتى البشرى بـالتحريم عنـدما يبـدأ فى تشكيل أول دولـة اسلاميـة» إنما الخمر والميسر والانصـاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » تأتى حيثيـات هذا التحريم فى نفس الآية إنما يـريد الشيطـان أن يـوقع بينكم العـداوة والبغضاء فى الخمـر والميسر، ويصـدكم عن ذكر الله وعـن الصلاة، فهل أنتم منتهـون.. ويهتف المسلمـون بالاستجـابة، انتهينـا يارب.. أمـا عقوبـة شرب الخمـر فتأتى بعـد ذلك بتشريع من رسول الله، وتشريـع الرســول مكمل لتشريع الله، مـا أتـاكم الرســـول فخـذوه، ومـا نهاكم عنـه فانتهوا.

بمثل هـذا الاسلـوب الحكيم اختفت الخمـر، وتـاب السكـارى، وتطهر الشعب.

وبالحكمة اشتبشع الزنا :

وماذا يفعل فى قضية الغـرائز الجنسية، والتى كانت تمارس سرا وعـلانيـة.. بل كـانت تجارة معترفـا بها، وانكى من هـذا أن بعض ســادة العرب كـانوا يكـرهـون الإماء على ممـارسة الجنس مقـابل أجر.. وأشهر هـؤلاء السادة المنافق عبدالله بن أبى.. ومـن المشاهد التى كـانت تثير التقزز والنفـور أن بعض النسـاء كن يطفن حـول

الكعبة عــريا وينشــدون شـعرا ماجنـا .

لقـد ظل الرسـول يـدعو النـاس إلى نبـذ الزنـا، ويشجعهم على الـزواج، وكـان يوصـى غير القادرين على الـزواج بـالصـوم حتى يلجموا شهـواتهم بالجوع (أيها الشبـاب، من استطاع منكم الباءة (أى المقدرة) فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بـالصوم فإنه له وجاء (أى وقاية)..

ونادى فى النساء يدعوهن لتجنب الاختـلاط بالرجال والتبذل فى الطرقات.. وكانت السماء تزوده بـالنصائح الخالدة « قل للمؤمنين يغضـوا من أبصارهم، ويحفظـوا فـروجهم ذلك أزكى لهم، إن الله خبير بما يصنعـون، وقل للمـؤمنـات يغضضن من أبصـارهن، ويحفظن فــروجهن » وبـــاركـت السماء كل من يستعفـف عن الفحشاء ، ووعـدتهم بالخير «وليستعفف الـذين لا يجدون نكـاحاً حتى يغنيهم الله من فضلــه»، ثم نـزلت آيـات التشريع ووضعت عقـوبـات للزنـاة، وتـرك التطبيق للـرسول، فعـالج الأمـر بمنتهى الحكمة..

كـان إذا جـاءه الـزناة معترفين يطلبـون تـوقيع العقـوبـة على أنفسهم لايعجل بتوقيع العقـوبة، ولكنـه يراجعهم المرة والمرة حتى إذا أصروا قـام بتنفيـذ العقـوبـة عليهم.. ثـم يترحم على من يقتل منهم.. بمثل هذا الأسلوب الحكيم قطع دابر جريمة الزنا ..

وبالحكمة عالج قضايا السياسة :

وبنفس الأسلـوب الحكيم عـالج قضـايـاه السيـاسيـة.. كـان مفـوضا حكيما وسيـاسيـا حكيما.. كـان وهو يفـاوض يستهـدف الانتصار لـدعوتـه وتجنب سفك دماء أنصـاره أو خصومـه.. كان ينادى فى النـاس وهو طـريد من الطـائف «من رجل يحمينى حتى أبلغ رسـالـة ربى» . ولكنه وقف بصلابـة عندما جاءه زعماء قـومه

يفاوضونه ليتنازل عن دعوته فى مقابل ملك مكة، أو أى مال يطلبه، قال لكبير المفاوضين وهو عمــه « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمـر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونـه».. وبعـد أن خـرج من مكة مهـاجـرا، واقـام صرح دولتـه، عـزم على العمرة إلى الكعبـة، فـانـزعجت قـريش، وتأهبت لمواجهته بالسلاح، ولكنه افهمهم أنه مسالم وليس مقاتلا .

وبدأت مفـاوضـات صلح الحديبية، وانتهـت بعقد ميثاق ظـاهره انتصار لأعـدائه، أما بـاطنه فكان قمـة الانتصار لـه ولدينـه.. فقد ضمن بهذا الصلح الاعتراف الصريح منهم بدعـوته، وضمن العودة معتمرا إلى مكـة فى العام التالى، وكسب مـواقع جديـدة فى مكة ثبت بها أقدمه، ثم انه لم يسفك قطرة دم من أصحابه أو من أعدائه .

وبالحكمة انتصر وبالحكمة ننتصر :

أما فى العلاقات الـدولية فإنه لجأ إلى الحوار مع الدول الكبرى، فأرسل لقـادتها رسائل، ووفـودا، ولم يـرسل إليها جيـوشـا، ولقـد تأثـرت بعض هـذه الدول بهذا الأسلـوب الحكيم وبـادلته بمثلـه.. صحيح أن هذه الدول لم تدخل دينه أثـر هذه الرسائل، ولكنه أقام عليها الحجة، والزمها بالبرهان، فلما بدأ الفتح على أيدى خلفائه من بعده، وجدوا الطـريق أمامهم ممهدا، ويكفى برهانـا على هذا انه لم يمض ربع قــرن إلا وهــذه الـدول العظمى قـد دخلت فى دين الله أفـواجا.. ولم يشعـر أبناء هـذه الدول بأنهم خـاضعون لاحتـلال أجنبى يستوجب المقاومة .

لقد انتصر محمد بـالسياسة الحكيمة على كل خصـومه، بل انه اكتسبهم إلى جانبه، وصدق الله حين قـال له «فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم».

ولازمته الحكمة فى ميادين القتال، فهو أولا يقف موقف المعتدى

فى جميع حروبه ، بل كان يدفع البغى والظلم عن المؤمنين «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله»،، على هدى هذا التوجيه الربانى خاض رسول الله كل معاركه.. ومع انه كان يقاتل بشدة وبسالة، ولكنه بعد أن ينتصر كان يرفق بأعدائه فيمن على بعضهم، ويفدى البعض الآخر، «فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها .»

وكان إذا استجار به ألد أعدائه أجاره ثم أسمعه القرآن ونصحه بالتوبة، وقد أوصاه ربه «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله، ثم أبلغه مأمنه .».

وبالحكمة خاطب العالم الخارجى :

ولقد ضرب المثل الأعلى يوم أن دخل مكة ظافرا فقال لمن كانوا من أشد الناس عداوة له «لاتثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء». بل انه جعل من بيت ألد الناس خصومة له مكانا آمنا، فقال «ومن دخل بيت أبى سفيان فهو آمن» .

بهذا الأسلوب احتوى الناس برحمته وعطفه وحنانه « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ».

بهذا الأسلوب الحكيم عالج رسول الله كل قضاياه، فانتصر بالحكمة وهو يعالج أمراض المجتمع ، وانتصر بالحكمة وهو يحاور خصومه بالسياسة، وانتصر بالحكمة وهو يشهر سيفه فى وجه أعدائه، وانتصر بالحكمة وهو يضع أساس أعظم وأعدل دولة فى التاريخ .

وياليت شبابنا يأخذون بحكمته وهم يعالجون أمراض مجتمعهم، وياليت حكامنا يسوسون شعوبهم بالحكمة فيفسحوا

صدورهم لغضب الشباب، حتى لا يشتط ويخرج عن سواء السبيل .

ويا ليتنا نأخذ بحكمته فى علاج قضايا أمتنا ونحن نواجه أعداءنا وما أكثرهم، ويا ليت العالم كله يستهدى بحكمته فيعيش فى سلام وأمن وحب. «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا، وما يذكر إلا أولو الألباب» .

الفهرس

الصفحة

رقم الإيداع ٩٦٠٩ / ٩٦
الترقيم الدولى I. S. B. N
977 - 08 - 0306 - 5

طبعت بمطابع دار أخبار اليوم